جدل الثقافة والسياسة
في الفكر القومي العربي

الحقوق كافة
محفوظة
لاتحاد الكتّاب العرب

البريد الالكتروني: E-mail **unecriv@net.sy**
aru@net.sy

موقع اتحاد الكتاب العرب على شبكة الإنترنت

http://www.awu-dam.org

الإخـــراج الفـــني: وفـــاء الـــساطي
تـــصميم الغـــلاف: يوســـف اسمـــندر

إسماعيل الملحم

جدل الثقافة والسياسة
في الفكر القومي العربي

منشورات اتحاد الكتاب العرب
دمشق

سلسلة الدراسات (7)
2012

تصدير

يراد بهذا التصدير بعض التوضيح الذي يتعلق بالجدل الدائم المستمر حول مفهومي القومية والعروبة والذي كانت بداياته في المرحلة التي استيقظ فيها متنورون عرب في أقطار عديدة.، وتعدى هذا الجدل الحدود، وطال كل ما يتعلق بحقوق الأفراد والمجتمعات. وترافق هذا الجدل مع الظروف الدولية التي رافقت التحولات في السلوك الاستعماري خلال الحربين العالميتين الأولى والثانية وما بينهما وما بعدهما. ركز الإعلام العالمي على ما رافق تينك الحربين من دعاية قومية في هذا الاتجاه وذاك، أعادت الدعاية أسباب تلك الحرب الكونية المدمرة إلى السلوك الاستعماري لكل من الفاشية والنازية، طارحاً إلى الخارج العوامل الأخرى في سلوك النظم الدولية الغربية منها والشرقية، وكان سهلاً آنئذ الحكم على النزعات القومية بالعنصرية والشوفينية، دون التحقيق والتدقيق في صحة المقدمات وشمولها وصدقيتها بالنسبة للمنظومتين اللتين برزتا بقوتيهما المتوازنتين لحد ما، وما رافق صعودهما الهائل من إغفال حاجات الشعوب الأخرى. أنتجت المعاهدات والاتفاقيات التي أنجزتها المؤتمرات والمفاوضات بين الكتلتين اللتين قادتا الحرب الباردة اقتساماً للعالم برز على الأرض في علاقات لا تخدم سوى مصالحهما بعيداً عن حقوق الشعوب الأخرى التي صارت سلعاً في سوق لا تحكمه أية نظم أخلاقية. غدت طموحات البلدان المتخلفة كأن لا وجود لها، أو أنها ضائعة بين برامج الأطراف الدولية المهيمنة. ولم يكن الحال في ظروف الحرب العالمية الأولى وما تمخض عنها من معاهدات، وما قررته الدول التي انتصرت فيها من وعود بذلت لإعطاء حقوق بعض الجماعات لجماعة أو جماعات أخرى لا تستحقها.

شكلت الحالة العالمية تلك، إضافة لما ظل سائداً من آثار الحرب العالمية الأولى، تحدياً للشعوب والأمم المستضعفة في مسارات نهوضها. فكيف يمكن لهذه الشعوب أن ترسم مستقبلها وتحقق استقلالها وتطالب بحقوقها انطلاقاً من حق الحياة والوجود، وليس انتهاء بحقوقها في المشاركة الفاعلة في فعل حضاري تحددت هويته بعد أن حقق التقدم العلمي والتقني قفزات لا يمكن تجاوزها في أي نشاط على مستوى الجماعات والأفراد؟

أدركت الفئات المتنورة من العرب، قبيل انهيار السلطنة العثمانية وبعده، ما تتطلبه التغيرات التي ظهرت على السطح ابتداء من الوهن الذي لم يخف صورة العجز والانحلال، مروراً بالتدخل الغربي السافر في مفاصل الحياة كلها. فكان لابد من البحث عن سبل النهوض وأسباب القوة الذاتية، لا للاعتداء على الحقوق المشروعة للآخرين، ولكن للخروج من أسر التدخل الأجنبي وسيطرته على مقدرات الأوطان وحقوق المواطنين. كان من السهل البحث عن شروط جديدة للمواجهة في الفكرة القومية التي تأسست على مفهوم العروبة. وقد يكون في تبرير الخيار القومي العربي آنذاك ما ينتقص من حقوق أقليات عرقية وثقافية تجلى في سلوك أفراد ومجموعات، لكنه كان باستمرار يلفت إلى حقوق مشروعة في هذا الإطار وإن شهد حالات من الشد أساءت في أحيان كثيرة لذاك الحراك الذي لم تكن له وقفات مراجعة لهذا الأداء وعناوينه القومية بسبب من عدم الوصول إلى الاستقرار، ولو في حدود دنيا، بهدف توضيح الفكرة القومية ووضع الحدود التي لا يمكن تجاوزها في العلاقة مع أطياف مجتمعات متجددة، وفي الإعداد لحركة مجتمعية تخرج أي نزعة ضيقة أو أي سلوك لا يضعان في اعتبارهما ما تفرضه حقوق المواطنة والمشاركة لأي مجموعة أو طائفة في أي جهد محلي أو وطني أو إنساني.

ما ذكر أعلاه لابد من وضعه في الإطار الذي يستحقه في الحديث عن أشكال من الجدل كانت محكومة بظروفها الثقافية والسياسية، خاصة فيما فرضه الحراك السياسي خلال قرن من الزمن من حالات التعطيل وإقفال أبواب الحوار وتعطيل قدرات الإبداع الضرورية لأي نهضة على أي مستوى كانت. ناهيك عن إدخال المنطقة في مشكلات وعقد كان عليها أن تدفع فواتيرها وهي لا تدري كيف؟

ولماذا؟ ولمن؟ إضافة إلى اصطناع لعب في السياسة قائمة أساساً على التعمية والتضليل، وما تبع ذلك من تناوب إصدار أحكام التخوين الجاهزة أحياناً والمفبركة في وقتها وساعتها، أحياناً أخرى.

كان البحث عن تحديد هوية الحراك القومي وأدواته ضرورياً لإبراز هوية هذا الحراك وفهمها، وكان الأخذ بالعموميات هو المتحكم بالأحكام التي يصدرها أصحاب الآراء المتضاربة، فيتركون للعواطف أحياناً، وللانتماءات الرمادية أن تكون لها معاييرها دون أن يكون لهذه المعايير محكات تفحصها هي نفسها، كما تفحص نتائجها وأحكامها أيضاً. فليس غريباً في مثل هذه الظروف أن تقع الفئات التي تصدت لإقامة مشاريعها الوطنية والثقافية في مستنقع المزاودات السياسية والأيديولوجية. أساء ما سبق إلى كثير من المقاربات، خاصة عندما يرتبط سلوك التطاول على حقوق الآخرين ومشاريعهم وخصوصياتهم القومية بالفكرة القومية والانتماء إلى العروبة من خلال ممارسات تمت تحت هذين العنوانين، وأعتقد أن أحكاماً جائرة كثيرة أطلقها أصحاب أيديولوجيات مختلفة على هذه الفكرة أو تلك دون الفصل بين سلوك المتسترين بها وبين الفكرة نفسها، على طريقة أن الولد العاق يجلب إلى أهله المسبة.

ليس في البحث أي ترويج لأي من الاتجاهات أو الفئات، بل دعوة إلى إعمال الفكر النقدي لتصويب أفكار يفترض أن تكون قادرة على خلق حالات من الائتلاف الذي لا يستبعد الاختلافات، ولكن يوظفها فيما يساعد على بناء ما يفتح الطريق إلى الإبداع في كل مجال من المجالات في حياة تقتضي الجهود التشاركية وترفض الاستبعاد كحالة مرضية لابد من تجاوزها.

المداخل إلى الانفتاح ونبذ التعصب تقتضي خروجاً من الدوائر المغلقة التي فرضها التخلف، وليس ذلك بالأمر البسيط والمتيسر، ذلك أن المجتمعات المتخلفة ما زالت تحكم على نفسها بالعطالة الإبداعية المجافية لكل تقدم، خاصة على المستوى الثقافي. وتتخذ الثقافة في هذه المجتمعات لنفسها شرنقة تقبع داخلها تحت شعارات تقديس الماضي، وإقامة نظم من التحريم تقف حائلاً دون التثاقف مع الآخر متسترة على عجزها وشعور أصحابها بالخوف، فيتعطل لديها الحس

النقدي، وتستند في تفكيرها إلى مقدمات راكدة خالية من الصدقية، فتغلق الباب أمام أية محاولة للدخول في العصر ملغية آليات المنطق والتفاعل مع البيئات والمجتمعات الأكثر تقدماً وتطوراً. تخضع طرز الحياة في مثل هذه المجتمعات إلى طرز من الركود، تطبع سلوكها بالتسطح وممانعة أي تغيير ضروري لمواكبة حركة الحياة التي لا تتوقف. يمكن مقاربة ما نشأ في علاقة السياسة بالفكرة القومية وبمفهوم العروبة، باعتبارهما جزءاً من منظومة ثقافية واحدة قارة ولها تاريخها، من التباس في العلاقة والتفاعل الذي كان مطلوباً مع منظومة المجتمع الكلية في منظوراتها القطرية من جهة، وفي منظوراتها الأوسع الإقليمية والكونية من جهة أخرى.

يعيدنا ما تقدم لتبين العلاقة بين الانغلاق الثقافي والعطالة الإبداعية، من حيث إنهما ظاهرتان ارتبط التخلف في الفكر العربي بهما.

الانغلاق الثقافي والعطالة الإبداعية

الإمعان في التشبث بالماضي ظاهرة لم يكد الفكر العربي يخرج من تأثيره حتى عاد أقوى من قبل. شكل هذا الارتداد صوراً تغيرت ألوانها ولكنها استمرت دون أن تغير من محتواها، مما حكم على الثقافة ألا تنتج إلا أنماطاً من السلوك والأفكار لتصبح رهن عطالة إبداعية تجلت في غياب الإبداعات الضرورية للنهوض ومواكبة العصر، والسقوط في اتباع نماذج صارت من مخلفات عصور تجاوزتها حركة الفكر ومقاربات العلوم على اختلاف موضوعاتهما. والعطالة عطالتان، بحسب شاكر مصطفى:

ــ عطالة ثقافية كلية تعني نهاية دورة الحياة الإبداعية، وبالتالي انقطاع الاستمرارية الثقافية الحية وموت الهوية الحضارية.

- عطالة جزئية أشبه بشلل الأطفال في الحركة الذاتية ينتهي بضمور تلك الهوية، وقعود الجماعة عن العطاء وتحول صدمة الحداثة إلى ضربة قاضية نتيجة لتوقف الاتصالات وتخلفها، حتى وقوع الجماعة في التكرار والحلقات المفرغة،

وجفاف التراث حتى يصبح قشوراً ميتة، وتسطيح التاريخ إلى أن يتحول عبئاً وعذاباً وقصائد شعرية تدغدغ العواطف تعويضاً عن الإحباطات المتوالية.

دخلت المجتمعات المتخلفة المحجوزة (دون التحول الصناعي وما تبعه من تحولات) في شتى مجالات الحياة، (من العلاقات الاجتماعية، وممارسة النشاطات الفكرية والنقدية، إلى مجال الأدب والفن) في أسر نمط من أنماط الشخصية يتصف (بالعصبوية الجمعية التي تمحو تحتها كل التشكلات الفردية). وليس خافياً ما تتصف به الردة التي ينزلق إليها المجتمع المتخلف، لأسباب كثيرة ولعوامل فيها الكثير من التعقيد، من اتساع المساحة التي يشغلها توطّن ظواهر سلوكية أهم ما يميزها أنها تنطبع بعصبويات دينية وعشائرية ومذهبية وسواها، يستغلها نفر وجماعات من انتهازيي اللحظات الحرجة وسماسرة السوق وأصحاب الأهداف والطموحات القصيرة النظر. فعلى الرغم مما تهيأ لأصحاب بعض الأيدلوجيات، ومنهم أيدلوجيو الفكر القومي، أن هذه العصبيات قد ذهبت إلى غير رجعة، وأنها صارت ماضياً منقضياً، وأن المجتمع تجاوزها إلى مرحلة من التجديد تهيئ أو هيأت الدخول في العصر دخولاً آمناً ومنتجاً، فإذا بالنتائج قد أتت عكس ذلك تماماً. فبدلاً من البحث عن الأسباب وإعادة ترتيب الأولويات، وتصليب ثقافة التغيير التي لا تتغافل عن التغير في المحيط الأكبر والتفاعل مع منظومات العصر المعرفية والتقنية، والتي لا تضيع الفرص في اختيار صمام أمان يحفظ حيوية المجتمع وينظم حركته في إطار منظومة أخلاقية تصون خصوصيته.

لم تستطع قشرة التكيف الهشة، في عصر لا مكان فيه لغير المبدعين وذوي التفوق العقلي، أن تمنع الردة الشنعاء أن تجد ما يخفي دمامتها وتخلفها. وليس باستطاعة مظاهر كاذبة أن تخفي تحتها المستويات المتدنية من أنماط السلوك والتفكير.

قد يكون فيما سبق، مسوغاً لطرح أسئلة المستقبل وعوامل ريادته، والبحث عن أجوبة التغيير في عملية نقدية فاحصة لأشكال الجدل مع الثقافة والسياسة والتاريخ وتبين ملامح الهوية بعيداً عن التهويل وعن إلباسها ما هو فضفاض عليها أو ما هو ضيق.

جدل الثقافة والتاريخ

1 – مقدمة:

على الرغم من تقدم العالم المعاصر في مجالات الحياة المختلفة فإنه يتعرض كل يوم إلى أزمات متوالية تتنوع بحسب نتائج التقدم التي لا يسبقها التحسب لردود الأفعال عليها وأمثلة ذلك كثيرة في التاريخ المعروف، منها ما يتمثل بالهوة المفزعة بين الأجيال والتي تعود في أهم أسبابها إلى التغير الواسع في مستويات المعارف وفي نظم الأخلاق وفي البنى الاجتماعية. فحيث انتصرت التكنولوجية فثمة من لا يرى في الماضي ما يطمئن لانطلاقة مستقبلية تحتاج إلى ثقافة مختلفة تفرضها المرحلة الراهنة بما هي نتيجة التغيير الذي يتطلبه التفجر التكنولوجي، وقد انقلبت من خلاله مفاهيم كثيرة، وتطورت أخرى بسرعات غير معهودة. وسط هذا الذي يحدث على مستوى الفكر والأخلاق يكون النظر إلى العلاقة بين التاريخ ،وهو حقل إنساني يصنعه البشر، والثقافة وهي ما تنتجه الجماعات من خلال ما يتأسس لديها من خبرات وتجارب؟ قد يكون الجواب الأوّلي في حالة التغير في الثقافة المرتبط بالتحولات الكبرى في السياسة والاقتصاد والمعارف أنها علاقة ثابت بمتحرك أو متغير وليس بين الطرفين ما يمكن أن تؤثره الثقافة في التاريخ. فهل حقاً أن التاريخ قد تقرر وكتب وانتهى إلى ما آل إليه حبراً على ورق؟ ليس التاريخ كلاماً قيل وليس هو صورة فوتوغرافية لأحداث جرت وانتهت، إنه بشكل ما يزودنا بفهم المتغيرات ويمنحنا شعوراً بالانتماء يمتد من الانتماء إلى الأسرة والمكان انتهاء إلى الكون، وابتداء من لحظة اختراع الكتابة انتهاء بحاضر متغير، كونه باستمرار زمناً مفترضاً. وأن الاهتمام بدراسة التاريخ يفترض أن يتخطى ما كانت إليه النظرة في مراحل سابقة من حيث أنه دراسة للوقائع كوحدات مغلقة وانتقال النظرة إلى

الأحداث والوقائع التاريخية في عملية تجاوزية تخطت من خلالها الكتابة التاريخية تلك النظرة ليصبح التاريخ دراسة ترتقي إلى تفسير حركة المجتمع والارتقاء إلى فهمها. ومع ذلك تظل الكتابة التاريخية موضع اتهام، وهي في ذلك ليست الوحيدة فالعلوم الإنسانية بعامة متهمة بمصداقيتها كونها تتأثر بالعوامل الذاتية للكاتب والباحث وأدوات البحث. وبعض الكتابات إن لم يكن أكثرها يقع تحت التهمة فيها الأشخاص المهتمون بالبحث بسبب من عوامل نفسية وأخلاقية واجتماعية. وكثيراً ما تتحكم الفوضى في مثل هذه الأبحاث عندما لا تصدر عن مرجعية واضحة وأهداف محددة. يحاول بنو البشر درء ما يعتور مجتمعاتهم من فوضى تهددهم فيلجؤون إلى إنشاء منظومات فكرية كلية تعيد ما يفتقدون إليه من نظام يمكن أن يرقى إلى فعل ينقل الأجزاء المبعثرة إلى وحدة تساعدهم على فهم مستقبلهم أو استشرافه، بحيث يبدو أكثر وضوحاً. وليس كالتاريخ ما يجد فيه المرء المرجعية، وليس كفقدان المرجعية ما يهدد الجماعة بالفوضى في أي نشاط اجتماعي من أنشطتها، بل ما يهدد الجماعة في وجودها ذاته.

مع كل ما سبق، يظل التفكير مشروعاً في جواب أو أجوبة تعطي الشرعية للسؤال الذي يتكرر على ألسنة كثيرين من الناس، ما الفائدة التي يمكن أن تجنى من التاريخ؟ أجاب (فرانسوا شاتليه)، على هذا السؤال، قائلاً:

المسألة الحقيقية في ما يهدف إليه علم التاريخ تتعلق بوظيفته الاجتماعية والسياسية أكثر منها خاصيته العلمية. والتاريخ من حيث كونه معرفة فهو يصدر أحكاماً، ومهمة المؤرخ في هذا المستوى نقد المادة الأولية ووضعها في صورة، وتنظيمها حسب محور انتقائي، أي تحويل المادة الأولية بعملية تصويرية محدودة إلى معرفة. والتاريخ باعتباره معرفة يصدر أحكاماً تكون تفسيرية.(1) ولكن العقل لا يكتفي دائماً بالتفسير، بل يطمح إلى مستوى يُعلي فيه المعلومة ويغني المعرفة بالفهم اللازم لأي إنجاز. وليس ذلك فحسب، فعملية التأريخ والكتابة التاريخية فيهما كثير من الإغراء، بقدر ما فيهما من الخصوصية، إضافة إلى ما يعبران عنه من حاجات إنسانية. يرتبط شغف الناس بالرواية التاريخية بدافع أولي، ربما يمتاز به الكائن البشري عن سائر الكائنات، أعني دافع حب الاطلاع، أو دافع الفضول. قراءة التاريخ فيها الكثير من المتعة وتمتلك المادة التاريخية جاذبيتها، ينتقل معها الإنسان

عبر الزمان متجاوزاً الأمكنة والحدود. وهذا الارتحال يمنح المرء شعوراً بأنه يتجاوز المكان والزمان، أو أنه يصبح طرفاً في أحداث قد تكون موغلة في القدم يتفاعل معها ويصدر أحكاماً على مجرياتها وأشخاصها...

يلعب دافع الفضول دوراً ليس بسيطاً في حياة بني البشر، يظهر في السؤال الدائم عما يجري وما جرى، يرافق ظهوره الحياة منذ الصرخة الأولى للفرد، إذ يمتلئ بالدهشة وهو يغادر بيئة الرحم المحدودة إلى عالم ليس محدوداً بالزمان والمكان. يضيق المرء منا بأسئلة الآخر، طفلاً كان أم راشداً، وينسى أنه نفسه كثير التساؤل. تدخل في ذلك أسئلة ملحة عن الأمس وعلاقة الحاضر به وما يمكن أن يلحق بالمستقبل شوقاً إلى سبق الأحداث من خلال ما توحي به أحداث الماضي وظروف الحاضر. ومثل ذلك يكون أيضاً عندما يستغلق الحاضر أمامنا نعود إلى الماضي نتصفح أوراقه غير المرئية أو تلك المسطرة المتوافرة بين أيدينا نفتش فيها وبوساطتها عن مخارج من خيبات الحاضر، أو أن العودة إليها قد يكون فيها ما يشبع الفضول في استخلاص أجوبة تتيح فهم الحاضر، فيكون تمسكنا بدراسة التاريخ نوعاً من تعزية النفس أنه كان لنا ماض هو مصدر اعتزاز، لعلنا نجد في تمسكنا بدراسة التاريخ وقراءته وكتابته ما يعيد بعضاً من الثقة المفقودة بالنفس وبقدرة الجماعة على التماسك والفعل وما نغطي به عجزنا عن الإسهام في بناء المستقبل وتبرير إخفاقتانا. وليس ذلك إلا بعض فضائل معرفة الماضي. في الإنسان فضول أيضاً لفهم الماضي نفسه فهماً يستضيء بخلاصة ما تم استيعابه –على اختلاف في مستويات الاستيعاب ـ وفي الحالين فالفوائد من ذلك تعطي المرء فرصة في تنظيم فهمه للعالم وتغيراته للدلالة على نسق منظم لتعاقب الأزمان كون الإنسان بحاجة دائمة لتكوين فكرة عن الزمن وتعديلها باستمرار، فالزمن بالنسبة للفرد ـ كما يبدو لذهنه القاصر ـ ذو اتجاه خطي بدايته نقطة الصفر لحظة بداية الخلق، ونقطة النهاية ـ كما يتصوره الذهن القاصر مرة أخرى ـ تكون يوم بعث الأجساد.

2 ـ الثقافة والتاريخ

ينزع الفكر البشري، عموماً، إلى إنشاء منظوماته بسبب من أحد اتجاهاته المتمثلة في إعادة أجزائه إلى الوحدة، هذا من جهة أولى، وإلى الكلية في أي جانب من جوانبه من جهة ثانية. ينطبق ذلك على البحث التاريخي. تتداخل في العمل على تكوين فكرة كلية للتاريخ عناصر الكتابة التاريخية مع الثقافة، ثقافة الباحث مع ثقافة الراوي والأشخاص الفاعلين في الأحداث. ليست الكتابة التاريخية عملية تقوم على سرد الأحداث وتسجيلها فحسب، ولا يمكن الركون إلى تفسير الأحداث بعامل واحد، فلكل إنسان نظرته أو فلسفته وقد تتعارض مع الآخر بدرجات مختلفة، على أن يكون للباحث في ذلك شيء من المرونة والرحابة وأن يكون محباً للعدالة من أجل القرب إلى الحقيقة بأعلى قدر من المسؤولية.

ثمة سؤال ما ينفك يمارس حضوره هل نقرأ التاريخ، تاريخ شعب ما أو تاريخ مرحلة من المراحل في الثقافة؟ أم إن الأقرب إلى الواقع قراءة الثقافة في التاريخ؟ تتقاطع الثقافة والتاريخ في حياة الناس فلا يبعد أحدهما عن الآخر بقدر ما يتقاربان. كما إن لكل جماعة إنسانية ثقافتها التي تميزها عن غيرها من الجماعات نقرأها في سلوك أفرادها وطرائق عيشهم وعاداتهم ونظرتهم إلى الماضي والمستقبل، فلدى كل جماعة توق إلى معرفة ماضيها وتطورها عبر مراحل سابقة من تاريخها تعيد إليها شيئاً من حاضرها وتلونه بما كسبت من ثقافة. يظهر ذلك في الميل إلى الاهتمام بالأنساب والعلاقات مع الآخرين وغير ذلك ...

لكن أجوبة هذه الأسئلة تظل قاصرة عن فك الاشتباك بين الثقافة والتاريخ حيث يسهم التاريخ في دفع الثقافة خارج ركودها ويمنحها قدراً من الحركة فتتغلب على سكونها وتبرح مكانها وزمانها، لكن ما يحصل لا يتخلص من التباسه، التباس الثقافة بالتاريخ أو العكس، كلاهما يأتي من الماضي لا ليصير حاضراً لأنه لا يتخلص من اللبس الذي يتلبسه. تشحن الثقافة التاريخ بانفعالات وأفكار هي بنت الماضي في الوقت الذي هو يقصد الحاضر، تتنافس العقائد الماضية مع نوايا الموضوعية والعلمية لكنها لا تتخلص من عبث ثقافة يتداخل فيها الواقعي بالأسطوري بالمقدس. تتم قراءة التاريخ بعين الثقافة ومصطلحاتها ومفاهيمها

المتداخلة الظاهر منها والباطن، يخالط الشعور اللاشعور وتتمايز المنظومات المعرفية والتراتبيات الأخلاقية في حين لا يكون التمايز بين الآن والأمس مضموناً أو ملموساً. يلبس التاريخ لباس الثقافة ولأنها تبدل ملابسها باستمرار تبدلاً ملحوظاً أو أنه يتم في مسار يسهم في إخراج التاريخ المدوّن من أي التباس قد يظهر . ولكن للجدل وجوهاً أخرى تنصف الكتابة التاريخية وتنصف الثقافة، وإن كانت لا تمحو الالتباس.

يفسر الناس التاريخ تفسيرات تكون في معظم الأحيان مختلفة من جماعة إلى أخرى باعتماد مقاييس للتفسير تصدر عن خصوصيات ذات بعد ثقافي. ولكل عصر أو مرحلة من مراحل التاريخ موازينها المختلفة عن غيرها، يتأتى ذلك بصورة كاملة الوضوح في صبغ الروايات التاريخية بصبغة الثقافة السائدة عند الجماعة عموماً، وبالمستوى الثقافي للراوي والباحث ومنطلقات كل منهما خصوصاً. إذ إن التاريخ ليس سجلاً للأخبار والحوادث بقدر ما هو بنية ثقافية. وهو من باب آخر – كما رأى زكي الأرسوزي – تتداخل فيه الخصوصيات القومية مع العالم، فتاريخ أية أمة من الأمم يشكل وحدة عضوية تنتظم في كل أعظم هو تاريخ الإنسانية جمعاء. (2)

كما تتفاعل الثقافة مع الأحداث وتؤثر في تفسيرها، فالتاريخ، من جانب آخر، يؤثر في الثقافة ويسهم في تغيرها، وفي الوقت نفسه، ليست الواقعة التاريخية من حيث هي فعل إنساني معطاة للمؤرخ أو لقارئ التاريخ لها المصداقية نفسها كما في التجربة الفيزيائية ونتائجها، فنتائج دراسة حادثة تاريخية تظل قيد التكوين لدى المؤرخ. فإذ تنتظر المواد الأولية التي يبني منها الفيزيائي عمله مكانها في البناء فإن البناء التاريخي هو فعل آخر مختلف يحتاج إلى مخطط وفلسفة ومنطق إنشائي وجهد طويل قبل أن يكتمل.

هناك امتياز للتاريخ لا يمكن أن ننكره أو نرفضه هو امتياز مد الذاكرة الجماعية إلى ما هو أبعد من كل ذاكرة حقيقية، وكذلك تصحيح الذاكرة ونقدها، بل وحتى تكذيب ذاكرة جماعة معينة حين تنكمش على ذاتها وتغلق أبوابها لتعيش عذاباتها وآلامها الخاصة بها حتى أنها تصبح عمياء خرساء أمام آلام

المجموعات البشرية الأخرى. تلتقي الذاكرة في طريق النقد التاريخي بمعنى العدالة. إذ كيف يمكن أن يتسنى للذاكرة أن تكون ذاكرة سعيدة إن لم تكن في الوقت نفسه ذاكرة منصفة؟(3)

يتداخل العنصر التاريخي مع الثقافة ويعطيها شيئاً منه فتتوجه وجهات تحددها الأحداث والوقائع في عملية تكاملية قد ترفع من مستواها، أو أنها قد تكون وسيلة للعودة بها إلى الوراء تعزز تخلفها وتضيف إليها ما يبقيها في حدود عدم تقبل الجديد وتكريس القديم. فكما يؤثر التاريخ من خلال تواتر أحداثه في الثقافة سلباً أو إيجاباً، فالثقافة لا تستسلم لنصوصه لأنها من باب آخر تكتب التاريخ، فلا نستطيع أن نفصل في الكتابة أو البحث في أي علم من العلوم الإنسانية بينها وبين الكاتب والباحث، فكتب التاريخ تعبِّر إلى حد ليس بالإمكان إغفاله عن نزعات المؤرخ وميوله الاجتماعية والسياسية وثقافة البيئة التي ينتمي إليها. لا يغيب عن بالنا، في هذا المقام، أن نذكر ذلك التغييب المتعمد عند هذا الدارس أو ذاك لبعض الأحداث أو لأحد الجوانب منها، وتضخيم بعضها على حساب البعض الآخر.وقد يلجأ المؤرخ إلى عمليات انتقائية في سرد الأحداث، وفق تقديرات يلعب فيها العامل الذاتي دوراً لا يغيب عن عين الناقد، إضافة إلى ما يمكن أن تغيره عمليات التحليل والتركيب في مسار الكتابة انطلاقاً من أفكار مسبقة شكلتها الثقافة السائدة، مما يدخل العمل التاريخي في مجرى تضليلي، مقصود أو غير مقصود. فالثقافة في الأساس يأتي تأثيرها من حيث أنها تنظم العلاقات في الجماعة بالصورة التي تكون عليه بنيتها، وهي التي تحدد وسائل الاتصال أو تؤثر فيها تبعاً لمستوى فهمها وقدرة استيعاب هذه الوسائط في تغيرها وثباتها.

لا تسلك الكتابة التاريخية، كما حركة التاريخ نفسه، دائماً مساراً خطياً صاعداً وحيد الاتجاه بل قد يكون مسارها أفقياً أو عمودياً أو لولبياً. وهذه الحركة تؤدي بنسب مختلفة إلى تداخل الثقافات وتمازج بعضها بالبعض الآخر، هذا من جهة، ومن جهة أخرى لن تكون الكتابة التاريخية أو ما يتناقله الناس شفوياً عن حوادث الماضي صوراً فوتوغرافية عما حصل، بل يدخل على ذلك الكثير من التحريف والتفسير وملء الفجوات في الرواية التاريخية بعملية تأويلية تحكم مسارها

ثقافة الراوي والكاتب والجماعة. فلا نجانب الصواب إذا قلنا إن الثقافة تكتب التاريخ أو إن التاريخ تنتجه الثقافة. فربّ مؤرخ يفسر الأحداث أو يردها إلى أسباب يراها في الثأر حيناً، وحيناً في الخلاف الديني أو المذهبي، أو أنه يراها في نزعات الهيمنة والتسلط السياسي أو الاقتصادي، كل حسب ما تتركه ثقافة ذاتية أو جمعية في موازنته الفكرة. فأين يمكن إذن تصنيف مثل تلك المقاربات من العلم والشروط العلمية في التاريخ؟

3 – التاريخ ووهم الهوية:

لشد ما تنزلق الكتابة في علوم الإنسان ومنها التاريخ في وهم الثبات في الهوية واعتماده معياراً للصدق، فيتسبب هذا الوهم في أن تفقد الكتابة التاريخية هويتها نفسها التي هي أساساً بحث في المتغير والثابت. وأخطر من هذا وقوع البحث في ربط ما يبدو متغيراً بثابت يعتمد مرجعاً أساسياً وضرورياً، يؤدي ذلك إلى القفز أو التجاوز عن ماهية الهوية وعدم إدراك المعنى فيها. ومثل ذلك الركون إلى تعريفات جاهزة، أو عد بعضها نهاية لكل تفكير وإحاطته بهالة من القداسة واستخدام عبارات التكفير المجانية سلاحاً ضد التفكير وموازنة الأحداث ونقد الاستنتاجات الضرورية في أية مقاربة علمية في أي موضوع من مواضيع العلم. وفي التاريخ لا يمكن ــ إلا بالمصادفة ــ أن تدرك عوامل التفاعل ونتائجه بين الإنسان والوسط الإنساني على مختلف الأحياز في هذا الوسط ونقلها إلى الوعي إلا من خلال معرفة الذات بوساطة الآخر. إضافة إلى ذلك فإن الإنسان لا يستوعب التاريخ، كما يقول هيغل، إلا عندما يستطيع رؤية الحاضر بصورة عامة كنتيجة لتلك الوقائع التي تشمل حلقتها الأساسية بأخلاق المشاركين فيها وأعمالهم. ويكتشف المرء أن النقص في تعليم التاريخ يقود إلى فقدان الذاكرة الجماعية، وفي ذلك ما فيه من ضياع الهويات والاستسلام إلى أوهام لا تؤدي إلا إلى ضياع الجماعة وإلى تصنيم بعض المراحل أو بعض الجماعات أو الأشخاص.

4 – التاريخ معطى إنساني

ليس التاريخ معطى ناجزاً، كونه فعلاً إنسانياً تصنعه البشرية، كما إن صوغ نصوصه وترتيب أحداثه وتنسيق فصوله هي صناعة إنسانية أيضاً، فهو بهذا المعنى معطى بشري، يرتبط بالناس. والحياة الإنسانية التي هي في تطور دائم وحركة مستمرة. يستفيد المؤرخ من سائر العلوم في عصره ابتداء بالرياضيات والعلوم الأساسية الأخرى بمختلف فروعها وتخصصاتها وبالعلوم الإنسانية ابتداء من الفلسفة التي تظل العودة إليها مشروعة. ليس التاريخ جمع أخبار فحسب، لكنه أيضاً استخلاص مبادئ وصوغ أفكار قد تحمل ما يساعد الإنسان على التنبؤ بصورة المستقبل وتحديد مسؤوليات أخلاقية إزاء الحاضر والمستقبل. قد يستسهل المرء إطلاق أحكام على المسارات التاريخية للبشرية ويستسلم لها مما يوقع في وهم الناس أن ما يحكم هذه المسارات ليس أكثر من مقولات معروفة لأن كل ما يحدث قدر محتوم، فالتاريخ يعيد نفسه عبر حركة دائرية وما على الإنسان إلا البحث عن نقطة البيكار فتنكشف أمامه لا أحداث الماضي فحسب، بل صورة المستقبل أيضاً.

يتجلى الدور الاجتماعي للتاريخ في الإقبال الحثيث على قراءته، وفي توظيف الأحداث والتفسيرات التي يعتمدها المؤرخ في أنشطة اجتماعية وفنية وأدبية، وقد يأخذ هذا الدور أشكالاً من مسوغات في العديد من الأنشطة السياسية. ولا تبتعد الأنشطة التربوية في إعداد الفلسفة التربوية والاستراتيجيات والمناهج وإعداد الكوادر التعليمية عن الاهتمام بالتاريخ وتوظيفه فيما يعتقد أنه الضروري والهام فيها.

لا يقتصر الاهتمام بقراءة التاريخ وتوظيفه على الأحداث الكبرى ففي التفاصيل الكثير مما يكشف عن أسرار الحياة البشرية ومما ينبئ عن المستقبل في نتائج أفعال ماضية أو حاضرة قد لا يعطيها البحث التاريخي حقها من التفسير والفهم الضروريين. وفي الوقت نفسه، فإن التسرع في الحكم على التفصيلات الصغيرة قد يفقد شيئاً كثيراً أو قليلاً من مصداقية البحث. يقول نيبور الألماني:

" قبل كل شيء يجب ألا يُدس حب الحقيقة، وأن نتجنب كل مظهر خاطئ وألا نقدم أصغر التفصيلات على أنها أكيدة، إذا لم نقتنع تماماً بيقينيتها إذا لم نعلن بأنفسنا الأخطاء التي نعتقد أنا ارتكبناها. والتي ربما لم يستطع غيرنا اكتشافها".(4)

5 ـ ضلالات التاريخ:

يصنع الناس تاريخهم وينتجون ثقافتهم، ولكنهم يقعون في ضلالات التاريخ التي ينزلق إليها المؤرخ بسبب من عدم توافر الأدوات الضرورية للبحث. فالمادة التاريخية في جزء هام منها تعتمدعلى الذاكرة وللذاكرة ضلالاتها، ويقوم التاريخ على تدوين ما تجود به هذه الذاكرة وهو غيض من فيض ،حيث تراكم الذكريات واختلاطها وحيث النسيان هو جزء من فعل الذاكرة نفسه. وفي المقابل فقد صار العمل في كتابة التاريخ أكثر وفاء للحقيقة حين يلتزم الكاتب بالحياد حيال الحوادث من جهة، وحيث صار للتاريخ مرجعيات وأدوات تمكن الكاتب من ضبط المادة واكتشاف مسارات الحوادث من جهة أخرى. ومن اليسير اليوم الاعتماد على علوم أخرى تساعد البحث وتقربه من الصدق والموضوعية، من ذلك: علوم الآثار والاجتماع والجغرافية والكيمياء والحقوق والرياضيات والوثائق وغيرها. ومع ذلك فثمة طريق مليئة بالأخطار والمزالق، لعل أصعبها حينما يقع الكاتب والمحلل في هوس التاريخ وحين يصير التاريخ كابوساً يصعب التحرر منه، وعندما يخلط الكاتب بين الخرافة والعلم. ولعل أخطر ما تتعرض له الكتابة التاريخية يتمثل بخداع النظريات، وبالانحياز إلى أيديولوجية من الأيديولوجيات، أو الوقوع في شرك تسويغ النزعات الفئوية و"اختلاق ما يتناسب مع أحلامها – الفئوية - بالانحدار إلى حال من أسطرة بعض الوقائع".

أهم ما تنتظره الأمانة العلمية من التاريخ يتمثل في اتجاه فكري لا يرى في التاريخ مجرد سرد للأحداث بطريقة أو أخرى معزولة عن ظروف الزمان والمكان من جهة، واعتبارها بذاتها بعيداً عن مؤثرات حاضرها وتأثرها بحركة نمو المجتمع أو ثباته من جهة ثانية. ليست الوقائع التاريخية وحدات مغلقة. الفكر المعاصر لا يرى في تاريخ مرحلة من المراحل، أو تاريخ جماعة من الجماعات حالات مستقلة عن حركة المجتمع والحياة، بل يراهما في إطار وحدة التاريخ البشري على الرغم من تعدد الجزئيات فيه ، وأن هذه الوحدة تدخل في عملية متطورة تتصف بالاستمرار. معنى التاريخ يكمن في تطور حوادثه ذاتها، لا في الصور الثابتة للأحداث كما تصورها كتب التاريخ القديمة والسير التي تتداولها العامة.

انتبه بعض الناس منذ القدم إلى ما اعتور كتابة التاريخ من ضلالات طمست كثيراً من الحقائق وزيفت في مجريات الأحداث. وقد حدد ابن خلدون في مقدمته ما يحتاجه صاحب فن التاريخ، من علم ودراية بما قد يقود إلى سوء في فهم تدوين التاريخ، مبيناً ما يراه من قواعد، لابد من اتباعها ومراعاتها، تنقذ المؤرخ من وهم الضلالات وإغواءاتها، وهي:

"العلم بقواعد السياسة وطبائع الموجودات واختلاف الأمم والبقاع والأعصار في السير والأخلاق والعوائد والنحل والمذاهب وسائر الأحوال. والإحاطة بالحاضر من ذلك ومماثلة ما بينه وبين الغائب من الوفاق، أو بون ما بينهما من الخلاف، وتعليل المتفق منها والمختلف والقيام على أصول الدول والملل ومبادئ ظهورها (...) وحينئذ يعرض ـ الكاتب ـ الخبر المنقول على ما عنده من القواعد والأصول فإن وافقها وجرى على مقتضاها كان صحيحاً وإلا زيفه واستغنى عنه".(5)

6 ـ النتيجة:

يمد التاريخ الحاضر ببعد يتجاوزه ليصله بالماضي، لكن ذلك لا يعني استعادة الماضي كما هو، فإعادة ظروف الماضي مستحيلة، ولكل مرحلة خصائصها ويعني ذلك أن الثقافة نفسها لا تبقى راسخة وحية كما هي، فليس هناك من ثبات ثقافي بالمعنى الحصري للكلمة، وإن ذلك لا يعني أننا نفلت من الماضي، ستظل بعض صوره تسكن بشكل أو بآخر في اللاشعور الجمعي بما فيها من صور منفرة أو جذابة أليمة أو محببة. ويظل التاريخ معرفة وعنصراً في ثقافة الناس تتوارثه الأجيال ولكنها لا تفتأ أن تتغير وتطرح أسئلتها، وككل معرفة تطرح أسئلتها باستمرار تحول أجوبتها إلى أحكام ومبادئ وقوانين تصدرها بآلية تحددها المنظومة المعرفية كما حددتها ثقافة الشخص وظروف الجماعة ومستوى آليات البحث وأدواته. ولا تقتصر أحكامهما ـ الثقافة والتاريخ ـ على الأحكام التفسيرية، ولأنهما كذلك فهما ينتجان براهين جديدة. حيثما يبحث التاريخ عن مصداقيته فهو سيصطدم بمسألتي الفهم والتفسير وهما مسألتان متحولتان. يضاف إليهما متقابلات أخرى في أسئلة التاريخ والثقافة وهي أسئلة ستبقى تبحث عن أجوبتها، منها ما يتعلق

بالسكون والحركة، وبكيف يكون التاريخ حوادثي أو تاريخ اجتماعي؟ أو كيف يكون فيزيائياً اجتماعياً أو ديناميكياً اجتماعياً؟

ويظل البحث في التاريخ يتأرجح بين غائية تبحث عن أسبابها وأسباب تسوغ له التفسير الذي يقوده إلى فهم الأحداث في تغيرها وتطورها، أيتنبأ بالمستقبل أم أنه ما زال في موقع الالتباس يعيش على ضفاف علميته؟ مع أن المختص بالتاريخ يشعر بنصيب من قدرة التصرف بين هذه الحدود، وهو ما استطاعه المؤرخ من تجاوز ما كان يعد المعرفة التاريخية معرفة تمتزج فيها الأحداث وتفسيراتها بالأسطورة إلى ما انتقلت إليه هذه المعرفة للاتصاف بالعلمية. مع ما يشكوه البعض من اعتبار المعارف التاريخية ليست أكثر من زي ثقافي أو شيء مضجر معرض لأن يتحول عنه طالب المعرفة في زمن قصير.

مع كل ما سبق لم يتخلص التاريخ من تهمة اللا حيادية، وهذه أيضاً ترتبط بشكل أو بآخر بالثقافة المتحكمة بزمن من الأزمان، وبالتأثيرات المختلفة من العادات والعقائد التي يتعرض لها الخبر والراوي والتي تضطر المؤرخ للتصرف بالرواية وبذل الجهد في التحليل والتعليل.

شغل العامل التاريخي اهتمام الباحثين العرب في سعيهم لتسويغ الفكرة القومية ووضعوه العامل الأهم في اقترابهم من مفهوم العروبة إلى جانب عامل اللغة وبموازاته أحياناً، وبتقديمه أحياناً عليه. هذا ما نجده في كتابات الكثيرين من المفكرين الذين قادوا الفكر العربي في اتجاه توضيح مفهوم العروبة أولاً، وفي الدعوات النظرية والسياسية للأحزاب والجمعيات في سعيها لبلوغ هدفها الأهم المتمثل بوحدة العرب ونهوضهم. تتبوأ بعض الأسماء دوراً ريادياً في حثها على العودة إلى التاريخ العربي واكتشاف جوانب القوة والضعف فيه، من هؤلاء ساطع الحصري، قسطنطين زريق، زكي الأرسوزي، وعلي ناصر الدين ولهم في هذا المضمار أنداد آخرون أيضاً.

7 ـ الاستشهادات:

(1) فرانسوا شاتليه: التاريخ، في فلسفة العلوم الاجتماعية لعدد من المؤلفين ص 201 و208 وزارة الثقافة 1994

(2) شاكر مصطفى: فلسفة التاريخ ومستقبلها في الفكر العربي المعاصر ـ الفكر العربي المعاصر ع 12 ـ ص 58

(3) الفكر العربي المعاصر ـ ع 116/ 117

(4) ف شاتليه: م س ـ ص207

(5) ابن خلدون: المقدمة ـ ص28 ـ دار إحياء التراث العربي ـ بيروت ـ دون تاريخ

فعل النهضة
جدل الثقافة والسياسة

1 – مدخل:

الوضع العربي الراهن بعد إخفاقاته الكثيرة لا يبعث كثيراً على التفاؤل في العديد من جوانب الحياة اقتصادية كانت، أم سياسية، أم فكرية. تعشش مظاهر التخلف والعجز والضعف في كل مفصل من مفاصل هذه الجوانب. وليس ثمة ما يبشر بأن زمن تجاوزه للتبعية آت قريباً، والعالم قد قطع أشواطاً طويلة في تقدمه وفي قدراته على مستويات الحياة كافة. حقق الإنسان سيادته على الطبيعة أو أنه أخضع جوانب هائلة منها لسيادته، روض بعضها، وأدخل من خلال فعل واسع منه ما وظفه في حل مشكلات معقدة ومتشابكة. انتقلت البشرية من طور إلى طور في تقدمها بلغ حدوداً غاية في التقدم وظل العقل العربي مرتهناً لماضيه. انتقل إنسان العصر إلى حيث أخذ يعيد النظر في منجزاته ويتساءل في الوقت الذي نمت فيه التكنولوجيا، إلى مستويات غاية في الإدهاش، هل انتقل الإنسان من البحث عن سبل سيادته على الطبيعة، أم أنه صار أسير التكنولوجية؟ هل وصل الإنسان العربي بأسئلته الوجودية إلى مستوى ما صار إليه العالم المعاصر عند حدود السؤال الآنف الذكر؟ الجواب يكاد يكون معروفاً إلا عند من كان في عينيه قذىً. ما زلنا، مع الأسف، في منطقة نائية عما وصلته الحضارة المعاصرة.

يعيش العالم المعاصر اليوم في سائر أرجاء المعمورة مشكلات تتعلق في مكان ما منه بتخلفه كما يعاني في مكان آخر من تقدمه، وهو لا ينفك يبحث عن حلول لهذه المشكلات التي باتت تؤرقه، أما العرب فإنهم ما زالوا أسيري تخلفهم وتبعيتهم.

الوعي هو الأجدر في الإجابة عن أسئلة الأزمات والبحث عن سبل تجاوزها، والقادر على تحديد أسباب معاناته. والأقدر في نشاطاته الواعية المتحررة من الخوف على تصحيح علاقته مع العصر ومع الآخر للخروج من مشاعر عجزه وفي تحقيق تفاعل إيجابي مع إنجازات الإنسانية التي انطبعت الحياة على كوكب الأرض بها.

بالنسبة لما يعتري الواقع العربي من ضياع، وما حدث للمشروع العربي القومي الذي كان يعيش مراحل نموه الأولى فإن غياب الرؤية القابلة للنمو والحياة اصطدمت بعدم التوازن بين الوعي القومي والمشروع الغربي المسلح بالقوة الاقتصادية والسياسية. ولم يتيسر للعرب الفرص اللازمة لنجاح مشروعهم القومي والارتقاء بوسائل نهضتهم، تمثل ذلك بنقص الوعي لقيادة المشروع القومي، وعدم توافر رؤية واضحة عن الآخر الغربي حليفهم في الحرب على السلطنة العثمانية. لم يستمعوا إلى من قالوا لهم: لا تقعوا في فخ الوعود، ولم يكتشفوا أنهم سيقعون تحت سلطة اتفاقيات دولية تمثلت بمعاهدة سايكس بيكو ووعد بلفور، ولم تكن هذه وتلك وليدتي اللحظة التاريخية، بل جاء ذلك حلقة في سلسلة من الممارسات والإعداد تمتد إلى مرحلة سابقة، قد لا تكون بدايتها نشوء الدول القومية في الغرب، والحاجة إلى الأسواق.

لا بد من استنطاق فعل النهضة العربية، ممثلاً بسلوك الفئات المتنورة من أبناء الإقطاعيين وشيوخ العشائر ومن انتهز الفرصة لتحقيق منافع شخصية أو القفز فوق المنجز الأولي في فعل يقظة لم يصلب عوده بعد في وقت لاح لهم أنهم قادرون على استنهاض الأمة آن تهيأت لهم الظروف، أو لاح لهم أن الفرصة قد بدأت بشائرها تلوح في الأفق عند أول تشكيل لسلطة عربية مستقلة في سورية. قد تكون البداية التي لابد منها في تقويم هذا الفعل وفهم مساراته وإخفاقاته على الرغم من الآمال التي كان يبشر بها، والزخم الذي منحته إياها الجماعات العربية في مختلف أقطار العروبة، أول ما يجب أن يقوّم ويدرس وتستخلص منه العبر.

لم يكن العيب فيما آل إليه مشروع النهوض العربي أنه قام على فكرة القومية العربية، كما يحلو لبعض الناس أن يطلق الأحكام جزافاً. لكن العقلية التي تنطعت لقيادة المشروع إياه لم تمتلك الحد الأدنى من الأهلية لإنجاحه.

نكوص مشروع النهوض هذا وإحباطاته جاءا نتيجة لأسباب أخرى أيضاً على غير ماذكرمنها افتقاده لمقومات النهضة، وفجاحة العقل الموجه، والاستقراء الخاطئ للواقع من جهة، مما أوقعه في الاستعجال ليصبح لقمة سائغة لبعض المتنفذين والعاملين مع دوائر الاستغلال والهيمنة من جهة أخرى.

الخروج من دائرة الدوران حول المكان والذات يستوجب القراءة المتأنية لتلك المرحلة الممتدة من القرن التاسع عشر، وربما إلى ما قبل ذلك بقرنين على الأقل. وأن يتم ذلك وفق منهج نقدي يساعد على فهم تاريخ هذه المرحلة لا تفسير أحداثها فحسب. وتوظيف النتائج في إعادة التأسيس والتصحيح وتجاوز النتائج التي أسفر عنها ضعف الرؤيا، وإخراج المشروع إلى دائرة الفعل بعيداً عن المغامرات الفردية والأيديولوجيات التي سقطت مصداقيتها طوال قرن أو يزيد، وإلا فدائرة العجز في اتساع وحالة الدوران حول الذات لن تنتج غير المزيد من التخلف والتبعية والضياع.

2 ـ النهضة، شروطها وحدودها:

الاستفادة من الدروس ومن تجارب الآخرين ضروريان لأي فعل، وهما يوفران الجهد والوقت. ومفهوم النهضة كان وما زال يتماهى مع ما أنجزه الغرب من تقدم هائل ونوعي يبرر للمرء أن يتخذه عنواناً، ليس بالأخذ به على عواهنه، ولكن للاستئناس، والفهم الضروري لمفاهيم النهوض واليقظة وسواهما.

ارتبط مفهوم النهضة في الغرب بالتغير في ترتيب الأوليات في السلوك وفي القيم مع التحول في التشكيلات الاقتصادية، فقد أخذت النظرة إلى العمل تتغير من كونه سلوكاً لا يليق بالجماعة الارستقراطية خاصة وطبقة الإقطاعيين عامة، إلى كونه أساساً في عملية التحول إلى نظام جديد كرسه تكوّن بورجوازية ناشئة مع انطلاقة الثورة الصناعية. فلم يعد العمل معيباً أو يخجل منه الإنسان. كان ذلك إيذاناً لتحول نوعي شمل السلوك ومنظومة القيم مما ساعد على تشكيل قواعد ما لبثت أن تحولت لتكون منظومة ترتب العلاقات الجديدة التي فرضتها التحولات المشار إليها.

لم يعد فعل النهضة ـ كما مثله عصر النهضة في أوربة ـ مجرد رغبة لمعت في الأذهان، أو رد فعل على نظام في العلاقات الإنسانية، أو لا نظام. لكنه انطوى على خصوصية مؤداها:

" ميلاد الإنسان الصانع الذي غير شكل العالم بفضل نشاطه. لقد انتهت المحرمات الذي ألفته طبقة النبلاء عن العمل وجعلته شيئاً مشيناً".(2)

تميز هذا العصر لأول مرة في إيطاليا بقيام اقتصاد سوق بدءاً من الجنوب، وأقيم أول مصرف في فلورنسا، إلى جانب مشاريع صناعية فرضت على الورش الحرفية والمشاغل اليدوية. وتهيأ ظهور بدايات رأسمالية. حلّ اقتصاد فردي رأسمالي غيّر النظرة إلى الطبيعة، فلم تعد لغزاً، ونما شعور بالرحابة والاتساع أخذ مكانه بدلاً من صورة العالم المغلقة. ترافق ذلك بنهوض في مجالات ونشاطات فكرية وجمالية في الموسيقا والغناء، كما في الرسم والمسرح، إلى جانب التغير الكبير في النشاط الاقتصادي وتنظيم العلاقات الاجتماعية. وانطلقت حركة اكتشافات واسعة غيرت النظرة إلى العالم تلك النظرة القديمة التي أعطت صورة للعالم مصطنعة ومغلقة كانت متوافقة مع مجتمع الإقطاع (مجتمع الثيولوجيا واللاهوت).(2)

وقد مثل عصر انطلاقة النهضة في الغرب اكتشاف وسائل جديدة للإنتاج، وشهد الغرب بروز شخصيات احتلت حيزاً واسعاً في ذاكرة الإنسانية بسبب ما أنجزته في ميادين مختلفة ساهمت بوضوح في انطلاقة النهضة وتعاظمها، منها ـ على سبيل المثال ـ كولومبس وداروين وغيرهما من أعلام هذه المرحلة.

أما ما اتفق على تسميته بالنهضة العربية في بدايات القرن العشرين، فقد كانت أقرب إلى اليقظة منها إلى النهضة. فقد تمثلت بأفكار طرحت في مواجهة الانحطاط لم تنتج وسائل للتغيير التي هي من أهم شروط فعل النهضة. فلم تتهيأ على المستوى الاقتصادي أسباب نمو إرادة النهضة، وظل النهوض جنينياً في رحم واقع رث، عمليات تعطيل هائلة أجهضت حركته وأفرغته من عوامل الدفع الضرورية لنموه، تمثل ذلك بتراجعات فكرية نكصت عما بشر به المتنورون وحاملو لواء الإيقاظ، من أمثال الأفغاني ومحمد عبده من اتجاه نقدي للواقع، مقابل

دعوات العودة إلى ماض بات غير قادر على التكيف مع ظروف السباق على المعرفة، واتباع أساليب التحريض ضد المثاقفة مع الآخر مما أخر فعل المثاقفة الضروري لفهم نهضة الآخر وأسباب تفوقه. فكانت النتيجة إعادة إنتاج الانحطاط والتخلف والعجز. هذا على المستوى الداخلي، أما على مستوى العلاقة مع الخارج، فقد فوجئت إرادة النهضة بالعدوان الغربي المتمثل بمعاهدة سايكس بيكو ووعد بلفور، استكمالاً لمشروع تقسيم الوطن العربي ومد الحمايات الأجنبية صاحبة النفوذ في هذا القطر أو ذاك. وما نتج عن ذلك من تكريس قطريات غذّت التجزئة وأفسحت المجال للاستفراد بكل قطر على حدة، وما تولد عن ذلك من بروز فكر قاوم الفكر القومي العربي بأشكال متنوعة أدت إلى إعاقة نمو ما بدأ من وعي أخذ يتشكل من خلال بعض الحركات السرية والجمعيات التي تبنت الفكر القومي من حيث أنه مشروع نهضة مستقبلي منذ القرن التاسع عشر، وبدأت بالظهور بدلاً من ذلك أنماط من سلوك قطري لم ينتج سوى التشرذم والنكسات، وتغيير مسار الفكر والنشاط. ناهيك عن صراعات على الحدود وعلى السلطة، وصولاً إلى المجتمع المقموع بأيديولوجيات غير ناضجة والموضوع تحت رقابات حراس الخطوط الحمراء فيما يجوز فعله وما لا يجوز.(3)

في مناخ التراجعات في الفكر القومي العربي والذي يتعاظم يوماً بعد يوم أصيبت حيوية الشارع العربي في الصميم إلى حد الشلل، وأصيب الناس بخيبة الأمل وقد أُوكل أمور مشروع النهضة إلى سلطات قاصرة سقطت في امتحانات الحاضر جلّها.

يضاف إلى ما سبق ذكره، أن فعل البحث في تردي النهضة العربية يحتاج إلى قراءة في شروط النهضة وحدودها والعودة إلى تراثها وتاريخ انطلاقتها، على أن الأقرب إلى الواقع أن الحراك القومي الآنف الذكر لم يتعد في حراكه مرحلة اليقظة التي افتقدت ما يتطلبه فعل النهضة من شروط وأدوات. وتلك البوادر فيما أسميناه اليقظة بحاجة لاستقراء مسيرتها والأفكار التي وجهتها والساحة التي انطلقت منها ونمت فوقها. لم يجر تأريخ دقيق لتلك البوادر وحركة نموها، بل بقيت البدايات بعيدة عن التحديد وظل التطرق إليها دون ما يتطلبه البحث من تدقيق ونزاهة،

واختلط المصطلح بأيديولوجيات لم تنتج غير التراجع والعودة إلى ما سبق بوادر هذه اليقظة.

3 ـ بوادر اليقظة:

لم تكن مرحلة حكم المماليك والفترة العثمانية مساعدة للتأسيس لفعل نهضة بقدر ما كانت بعض الظروف تبرز بين حين وآخر بوادر يقظة، كان بالإمكان أن تؤسس لمرحلة من الوعي لبلورة مشروع قومي عربي قادر على النمو.

من هذه البوادر محاولة علي بك الكبير القيام بإصلاحات منها إنشاء قوة عسكرية، وتأسيس نهضة اقتصادية، لكن محاولته باءت بالفشل، ووقعت تحت وهم القوة وإلغاء أي صوت مبادر. ومنها تجربة الأمير فخر الدين المعني الثاني في لبنان وهي تندرج في تلك البوادر وتستحق أن تدرس كنموذج فيما يخص هذا البحث.

كان مشروع كل من علي بك الكبير والأمير المعني يعبر عن طموح كل من الرجلين في تأسيس ولاية عربية لها استقلاليتها.

باشر فخر الدين الثاني مشروعه في بدايات القرن السابع عشر في إقامة الولاية المعنية في منطقة الشوف بلبنان واستطاع في زمن قصير أن يمد سلطته إلى البلاد الواقعة بين نهر الكلب وجبل الكرمل فشملت ولايته شمال فلسطين وسواحل لبنان وصولاً إلى صلخد جنوب سورية وتدمر في باديتها، وأقام علاقات مع إمارة آل مديتشي في توسكانا جنوب إيطاليا. شن الولاة العثمانيون عليه هجوماً كبيراً اضطروه إلى ترك إمارته واختيار منفى له لدى أصدقائه في توسكانا بدءاً من عام 1613 إلى عام 1618 حيث عاد لمباشرة ولايته إثر عفو عنه. نشط فخر الدين آنذاك في القيام بإصلاحات شاملة في إمارته مستفيداً مما عاينه من بدايات النهضة في أوربة وكانت قد انطلقت من جنوب إيطاليا. قوّى جيشه وجهزه بأسلحة متطورة، كما بنى أسطولاً صغيراً وميناءً مناسباً، ورعى حركة عمرانية واسعة عمت المنطقة، وبنى الأبراج والحصون، ونظم شؤون الإدارة، وأعطى اهتماماً خاصاً لتعليم اللغة العربية.

لفتت إصلاحاته سلاطين الآستانة والولاة المجاورين، فشنوا عليه حرباً أسر على أثرها وقيد إلى عاصمة الخلافة مع أحد أولاده وأعدما، بعد أن استمر حكمه حتى عام 1632.

تعد هذه التجربة بادرة يقظة عربية كان بالإمكان البناء عليها لقيام فعل نهضوي يتناسب مع ظروف المرحلة إياها؛ كان لقائدها مشروع استقلالي مشفوعاً بإرادة وفعل نهضة زامن انطلاقة النهضة في أوربة، ووعى شروط تلك النهضة، لكن ضعف الوعي الشعبي وطبيعة الفساد الذي ساد المرحلة وأد هذه التجربة في بداياتها.

وبعد ذلك بقرنين حاول محمد علي باشا القيام بإصلاحات واسعة في مصر وأرسل البعثات إلى أوربة وركز اهتمامه على نحو كبير على الجيش وضرب على يد خصومه. لكن تعاونه مع الأجنبي أوقعه في غلطة أنهكت مشروعه وأعادته إلى الوراء. في حين دفعته فرنسا لمهاجمة السلطنة كانت فرنسا نفسها تعقد الاتفاقيات مع الآستانة.

لكن روح اليقظة لم تتوقف، بل برزت في كثير من المواقع والمناطق، وأخذ الشعور بضرورة الفعل الوحدوي العربي بالظهور رافعاً شعار الوحدة العربية في الفترة من 1789إلى 1920 .

من معالم هذه الفترة التوجه نحو افتتاح المدارس، ولو ببطء، أخذ التعليم الرسمي بالاتساع وزاد عدد المدارس الخاصة، وظهر العديد من الصحف وطبعت الكتب وازداد حجم الاستيراد، ونما الاتصال مع الخارج.

والشيء اللافت في هذه المرحلة إنشاء النوادي والجمعيات الثقافية. وظهور بوادر تحرك شعبي لافت تمثل بحركات العامة ضد الإقطاع (عامية انطلياس وثورة طانيوس شاهين في لبنان وعامية جبل حوران في سورية في النصف الثاني من القرن الثامن عشر)."4" وبدأت بعض الحركات السرية السياسية في الظهور على شكل جمعيات وحلقات في كل من سورية ولبنان وفلسطين.

يندرج تحت هذا الباب أيضاً، حركة حمدان بلخوجة في الجزائر في النصف الأول من القرن التاسع عشر، وقد تبنت فكرة القومية العربية. ومن الحركات

السرية: الجمعية السرية في بيروت، والجمعية السرية في دمشق التي تبنت الدعوة ليكون الأمير عبد القادر الجزائري ملكاً على العرب. وجمعية سرية ثالثة في طرابلس الغرب. كما نشأت حلقة دمشق الصغيرة ثم الكبيرة حول الشيخ طاهر الجزائري. وأخذت نبرة التمايز القومي والتنديد بالأتراك تعلو شيئاً فشيئاً.

يضاف إلى ما سبق بروز أقلام نشط أصحابها في شجب الاستبداد والدعوة إلى الوحدة العربية واستقلال أقطار الوطن العربي بنبرات مختلفة الشدة. من أشهر هؤلاء المتنورين والدعاة كان:

أديب إسحق من لبنان، دعا إلى قيام دولة الشرق العظيمة وإلى الحياة الدستورية. **وعبدالله النديم** من مصر ربط بين اللغة والأمة وشجع على تعليم اللغة العربية والذب عن لغة الضاد. **ومحمد شكري الألوسي** من العراق ألف كتاباً بعنوان(بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب). **وعبد الرحمن الكواكبي** من سورية صاحب كتابي أم القرى وطبائع الاستبداد، وغيرهم. "5" وإلى جانب هؤلاء برزت أقلام هامة تنويرية عرفت بالثقافة الغربية، ونقلت إلى القارئ العربي أفكاراً علمية كسرت من حدة التوجه الأصولي الداعي للعودة إلى الماضي والمحذر من علم الغرب، من هؤلاء **شبلي شميل وفرح أنطون وإسماعيل مظهر وسلامه موسى وعلي عبد الرازق**.

ظهر بعد عام 1904 تباعاً العديد من الجمعيات والأحزاب تدعو إلى اللامركزية، كما دعا بعضها إلى استقلال العرب عن السلطنة العثمانية، منها حزب اللامركزية والمنتدى الأدبي وجمعية النهضة وحزب العربية الفتاة، وغيرها. وما تبع ذلك من انعقاد أول مؤتمر عربي تبنى فكرة القومية العربية ودعا إلى التحرر من الحكم العثماني عام 1913 في باريس. وقبل ذلك وأثناءه صدرت صحف ومجلات عملت إلى جانب الأحزاب والجمعيات ومعها، منها:

مجلة الجنان التي أسسها بطرس البستاني، استمرت بالصدور ما بين 1870 و 1886. و**مجلة المقتطف** لمؤسسها يعقوب صروف صدرت في بيروت أولاً في عام 1876، ثم انتقلت إلى مصر واستمرت في الصدور حتى عام 1953، وكذلك **مجلة الهلال** وجريدة الأهرام اللتان أسسهما جرجي زيدان وأخوه إميل في مصر في عام

1893 (6). ومنها جريدة **المفيد** لصاحبيها فؤاد حنتش وعبد الغني العريسي التي أصبحت لسان حال جمعية العربية الفتاة. وفي مصر أيضاً أنشئت **جريدة المؤيد** لصاحبها علي يوسف الذي سبق له أن عمل في جريدة القاهرة، كما عمل في مرآة الشرق التي كان رئيس تحريرها الشيخ محمد عبده.

4 ـ النهضة العربية وخياراتها:

من أبرز ما تمثل به فكر النهضة خياران رئيسيان،

أولهما: ما مثّلته جهود ودعوات جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده، ومن بعدهما شكيب أرسلان ومحمد رشيد رضا. شكل هؤلاء ظاهرة اكتشاف أحد أهم أسباب الانحطاط في الدولة العثمانية متمثلاً بالتأويل الظلامي والفهم الجاهلي للإسلام. فتنطعوا لحمل مهمة تأويل الدين في إطار حركة ترفع راية العقل والحرية. وتلخصت هذه المهمة، كما يقول رضوان السيد، السياسية والفكرية في ثلاثة كتب، هي على التوالي: سر تقدم الانكليز السكسون الذي ترجمه أحمد فتحي زغلول. ورسالة التوحيد للشيخ محمد عبده. وتحرير المرأة لقاسم أمين. هلل رشيد رضا في مجلته المنار لهذه الكتب، ولكنه بعد ثلاثين عاماً تراجع ليصدر رداً على قاسم أمين فيما يشبه الشجب. لكن هذا الاتجاه تراجع عما بدأه على يد بعض رموزه لينتهي إلى ما كتبه ودعا إليه حسن البنا ثم سيد قطب."7" وأكثر ما تركز هذا التراجع في الرد على قاسم أمين في موضوع تحرير المرأة.

ثانيهما: تمثل الاتجاه الثاني في حركة تنويرية حملت على عاتقها تنوير الرأي العام بما حصل ويحصل في الغرب من تبني العلم وتنمية المعارف بشروط النهضة والخروج من حالات الجمود والتخلف. ظهرت الدعوة إلى ذلك في كتب هامة أصدرها كتاب عديدون من أمثال رفاعة الطهطاوي وإحسان مراش وشبلي شميل وآخرين.

توسعت بوادر اليقظة إلى حد بلورة نواة لمشروع نهضة تبنت القومية العربية هوية لها وانتماء. تجمع تحت لوائه متنورون وأصحاب أفكار أدركوا جميعهم أن الانتماء القومي يشكل هوية أي تقدم على طريق الاستقلال عن الدولة العثمانية،

تميزت أولى خطوات المشروع من الناحية العملية بانضمام واسع لشرائح عربية من مثقفين وعسكريين وزعامات متنوعة الاتجاهات من بلدان عربية مختلفة. أهم تجليات هذا المشروع كانت فيما تمخض عنه أول مؤتمر عربي عقد في باريس عام 1913. وبعد ذلك كانت انطلاقة الثورة العربية الكبرى عام 1916 وكانت كوادرها عربية الطابع لا نزعة قطرية داخلها.

5 ـ عناصر الضعف في مشروع النهضة العربية :

أثقل المشروع القومي العربي نفسه بالتاريخ. فإذا كان التاريخ يبلسم شعور الجماعة المجروح بسبب التأخر والضعف ، فإنه يطمس التفكير به كونه فعلاً إنسانياً مشروطاً بمراحله التي يمر بها ، وهذا ما فوته العرب على أنفسهم من اكتشاف أدوات التعامل مع التاريخ ، وفهمه. ففي حالات الانكسار وما أكثرها ، من نتائج سايكس بيكو وما ترتب عليها ، فنكبة 1948 إلى أيامنا هذه ، والعرب يحاولون إعادة الثقة بأنفسهم على طريقة المفلس يفتش عن أوراق أهله(العتق).غاب عن المشروع القومي العربي أن الهوية ليست إرثاً جاهزاً ، إنها فعل ، وهي في تغير تحكمه الظروف والإرادات ، وهذا ما لم يدخل في حسابات المؤدلجين. لا يمكن للتغيير والتفاعل معه إدراكه إلا من خلال معرفة الذات بوساطة الآخر ، إلى جانب ما تكتشفه في مراحل تشكلها. ولا تكون النهضة إلا بالخروج من الدوائر المغلقة إلى الفضاءات الأرحب ، وهي يقظة الإنسان حين ينفتح أمامه المغلق ، كما كتب بلوخ.

لخص قسطنطين زريق العناصر الأساسية التي شكلت الأساس في نجاحات مشروع النهضة في الغرب بـ :

1- النظام الاقتصادي الذي أفرزته الثورة الصناعية ، وتمثل بزيادة الإنتاج وتنظيمه من خلال استغلال طاقات الطبيعة بالزراعة الحثيثة ، والإنسان والآلة.
2- العلم المعتمد على العقل والاستكشاف الدائم.
3- فلسفة تقوم على نظرة للعالم بمقاييس متشابهة.

اتسعت نهضة الغرب بحيث شمل نطاق اهتمامها الطبيعة والمجتمع ، كما أنها انطلقت من إيمان بأن استغلال قوى الطبيعة وإصلاح الأوضاع الاجتماعية يؤديان

إلى التقدم. أما الاتجاهات الأخرى في مشاريع أخرى كمشروع النهضة العربي فقد جعل قضيته الرئيسية، تحت تأثير الشعور الديني، قد كرس بصورة أساسية لإصلاح الفرد بعيداً عن الشروط السابقة. (8)

من سوء حظ العرب ونمو مشروعهم القومي، أن الغرب الذي أخذت نهضته منذ الثورة الصناعية اتجاهاً استعمارياً استطاع أن يتوسع في أسواق استهلاك منتجات صناعاته وأسواق إمداده بالمواد الخام، كما أخذ يوسع نظرته إلى العالم أيضاً، مدركاً أهمية المنطقة العربية في مشروعه الاستعماري هذا. وكانت بعثة مترنيخ عام 1833إلى مصر نتيجة هذا الإدراك، وملخصها أن نهضة على الساحلين الجنوبي والشرقي للبحر المتوسط ستكون معوقاً للمشاريع الاستعمارية. وخرجت لجنة جامعية ضمت مؤرخين متخصصين من جامعات بريطانية وفرنسية بدراسة تاريخ زوال الامبراطوريات القديمة خرجت بنتيجة تقول أن وحدة بين تلك الأقطار، الواقعة جنوبي المتوسط وشرقه، خطر على الغرب، خاصة أن عوامل الوحدة مكتملة لديها. لكن، لم ينتج العرب مؤسسات فاعلة تستطيع، بصورة أو بأخرى أن تسهم في دفع مشروع نهضتهم إلى الأمام. مما فوت الفرصة ـ ولو في الحد الأدنى ـ على ضبط وتفعيل النشاط الفكري والعملي لهذا المشروع ورسم خارطة طريق له، بدلاً من الاعتماد على الظروف والمصادفات، أو الاعتماد على النوايا والرغبات.

أي مشروع مستقبلي يحتاج باستمرار إلى تطوير في الثقافة التي تساعد على تحقيقه ووضع البدائل لمواجهة المتغيرات. ولأن الثقافة لا تكون خارج المجتمع ولا يستطيع الناس أن يخرجوا من تأثيرها في سلوكهم، فإنها تتعرض باستمرار في نموها وتطورها للمواجهة مع السياسة. وأخطر ما تتلقاه الثقافة في هذا الإطار أن السلطات المهيمنة تسعى للسيطرة على أذهان الناس للاحتفاظ بامتيازاتها كأقلية. وقد وقعت في معظم الأحيان في حالة استنقاع ثقافي فرضه السياسي أحياناً، فقد كان هذا الأخير، في حالة من الضعف والوقوع في أنانية أعمت رؤيته عن المستقبل، متشبثاً بأيديولوجية مغلقة لا ترى في الثقافة ما هو خارج أفكارها الناجزة وأحكامها الجاهزة. من طبيعة أية سلطة أنها تجنح إلى التعامل مع الممكن لذا فهي

تخرج الثقافة من إمكانية التطور والتجديد اللذين يحتاجهما مشروع النهضة الذي يقتضي الحركة ويخنقه الركود. فبدلاً من الشروع في عمليات تنموية ذات بعد مستقبلي، يقوم على اكتشاف نجاحات مثيلاته عند الآخرين أصيب مشروع النهضة في الصميم بانغلاق السياسي على قطرية من طبيعتها الانغلاق، مما أفسح المجال لتراجع في الفكر والثقافة نحو ماض مجتزأ من سياقه التاريخي، غارق في غيبيات تلوي عنق النصوص فيغدو الفكر مغرداً خارج العصر. وهذا ما يشهده الراهن العربي من سيادة قطرية تحمل بذور ضعفها وتنتج ثقافتها العاجزة في ردة أهم صفاتها تعميم فكر ما وراء قومي منقطع عن تطور العالم واتجاهات الحضارة المعاصرة المتفاعلة مع ثورة المعلومات والاتصالات.

والأخطر من كل ما ذكر أن مشروع النهضة ظل بعيداً رغم انتكاساته وتراجعه خارج عملية نقدية واسعة يحتاجها، ففعل النهضة يكون في أدنى درجات قوته حين يستسلم لرتابة الواقع المتخلف.

إن ما يفرق بين التفاوت في اعتناق النظرة العقلية الفاحصة وبين الاعتماد على التقليد والترديد والتكرار هو ما يفرق بين عصور الازدهار وعصور الانحدار في التاريخ.(9)

وفي مناخ تنامي الشعور القومي العربي بعد نكبة فلسطين عام 1948، وانتعاش الشارع العربي وتنامي حيويته، سقط الحراك القومي في أسار سلطات متنوعة تمثلت في مؤسسات رسمية وفي تنظيمات غير ناضجة جعلت همها واهتمامها يتجهان للإمساك بسلطات لم تنتج سوى التراجع. وتنصيب نفسها وكيلاً عن شارع اتخم بالشعارات، وفقد بوصلته.

يمكن توصيف ما آل إليه الفكر العربي في العقود الأخيرة من القرن العشرين بأنه:

1 - عانى من مراهقة سياسية وفوضى لم تنتج سوى سلوكات إقصائية باعدت بين وعي الواقع والوقوع في أسر مصالح فئوية وانتهازية.
2 - غياب الممارسة الديمقراطية في العلاقة مع من يفترض أنهم الشركاء الحقيقيون.

3 - تلطي المتجاوزين تحت شعارات غائمة تحتاج للدرس والتمحيص وتحديد الأهداف وفق أوليات قابلة للتحقيق.

4 - إقحام العروبة والفكر القومي في جدل بيزنطي مع الإسلام، فكأن العروبة والإسلام نقيضان. أنتج ذلك التباساً أعاق نمو فكر متزن تتضح فيه حقيقة العلاقة الإيجابية في مثل هذه المعادلة.

5 - اتهم الفكر العروبي، على غير ما معيار، بالشوفينية في نمط قياس لا موضوعية فيه ولا منطق.

6 - إضعاف الفكر القومي في عملية غوغائية مقصودة أحياناً بسبب وقوعه ضحية أنظمة لاعقلانية ادعت تبنيها له وسعت إلى تنميطه.

7 - تنامي سلوك انتهازي وارتزاقي من كتّاب وصفوا أنفسهم بالمفكرين القوميين حيناً والتقدميين أحياناً برروا سلوك سلطات وقادة، بدلاً من تصويب الممارسات الخاطئة.

8 - إثقال الفكر القومي بالتاريخي لتعزية النفس عن المشاعر الدونية في عملية قياس التخلف عن الغرب وتبريره.

9 - الانقطاع في الفكر القومي وعدم بناء اللاحق على السابق بعد نقد هذا الأخير وتقويمه.

يحتاج المشروع القومي العربي إذاً إلى مراجعة شاملة واعتماد الفكر النقدي والابتعاد عن تقديس النصوص والأشخاص. كما أنه لابد من التمييز بين السياسة التي تنتج ثقافتها والثقافة التي تحتاج إلى حرية الفكر والتعبير بعيداً عن النمذجة والتنميط.

يحتاج الفكر القومي في كونه أساس أي فعل نهضة إلى الاهتمام بالإبداع وتنشيطه عند المتعلمين وتهيئة الظروف لنموه في مناخ من الحرية بعيداً عن الضغوط. يعني هذا ربط المشروع القومي بالفعل التربوي وتنهيضه من خلال رعاية اجتماعية تفسح في المجال لنمو بحوث تربوية تقوم على أساس من تفكير عقلاني مؤمن بأن العصر لا يرحم المتكاسلين وأن رعاية المتفوقين وتوجيههم نحو العلوم المعاصرة هو الركيزة التي بسواها لا تقوم أية نهضة.

6 ـ الاستشهادات

1 - ارنست بلوخ: فلسفة النهضة –ترجمة مصطفى مرجان –ص80 ـ الفكر العربي المعاصر ـ ع13
2 - السابق: ص81
3 - مطاع صفدي: عصر الاستشهاد الثقافي ـ ص11 –ع 11
4 - ناجي علوش: التبلور السياسي للمشروع القومي –ص56 –الوحدة ع53
5 - السابق: ص 58
6 - كمال عبد اللطيف: الخطاب النهضوي المعاصر ـ هامش ص87 ـ الفكر العربي المعاصر ـ ع11
7 - رضوان السيد: عصر النهضة الأسئلة الكبيرة والإجابات الحائرة ـ الفكر العربي ـ ص4 ـ ع39 / 40

- جدير بالذكر أن حركة تحرير المرأة شهدت تطورات هامة في مصر تمثلت في: ـ التظاهرات في الشارع المصري رفعت النساء خلالها شعارات الوطنية والتنديد بالاستعمار والمطالبة بحقوق المرأة.

- تحركات خفيفة في لبنان وسورية، لعلٍ أعلاها صدور كتاب السفور والحجاب للشابة نظيرة زين الدين عام 1928 رداً على صدور قانون من السلطات المنتدبة –بتأثير بعض المتدينين ـ بالتشدد على النساء وإجبارهن بالحجاب ومعاقبة السافرات. قارعت ما قام عليه القانون بحجج دامغة من آيات القرآن الكريم والحديث النبوي. هوجم كتابها كما هوجمت صاحبة الكتاب على صفحات الجرائد في دمشق وبيروت والقاهرة والقدس، كما وجدت بعض الأصوات التي وقفت إلى جانبهما. مما حدا بالكاتبة أن تصدر كتاباً ثانياً تحت عنوان الفتاة والشيوخ انتصاراً للكتاب الأول.

8 - قسطنطين زريق: شؤون عربية ـ ص34 ـ 1982
9 - قسطنطين زريق: نحن والتاريخ ـ ص93 –دار العلم للملايين ـ بيروت 1959

جدل الثقافة والسلطة

1 ـ مدخل

يتعلق توصيف السائد في علاقة السلطة بالمثقف في عصرنا وربما في عصور سلفت بأوصاف للثقافة أنتجتها حالات الانغلاق والانتقائية الفجة في خيارات مجتمعية وسلطوية، حكمتها علاقات لا تمت إلى متطلبات العصر، قامت على أنماط سلوكية من الاستئثار والحذر من أصحاب الكفاءة والفكر، وإلغاء الآخر. يتجلى ذلك في العلاقات داخل الأسر والمؤسسات والتجمعات الصغيرة والكبيرة، داخل المكتب الواحد والجمعية الواحدة على اختلاف وظائف هذه المؤسسات. انتشرت حالات من الثقافة، يمكن توصيفها بالآتي، من ذلك:

1 - ثقافة الخداع والتضليل وهي ثقافة تسود فتحدد العلاقة بين الناس في شتى جوانب الحياة. تمارسها فئات وأشخاص إلى درجة أنهم يتفاخرون في إتقان أساليبها، إلى درجة أنهم يخدعون أنفسهم بأن ما يفعلونه لا أسلوب أصلح منه.

2 - ثقافة التخوين والتكفير: يكاد المرء لا يجد كبير عناء في إيجاد أمثلة كثيرة عن هذا النمط سواء في عصور قديمة أو في الراهن منه.

3 - ثقافة التحريم: تهدف إلى إقصاء الجديد المخالف للماضي وتحريم ما هو مبتكر.

4 - ثقافة إقصاء الآخر وعدم القبول به إلا تابعاً أو مقلداً.

5 - ثقافة الاستحواذ.

6 - ثقافة يتنازعها فريقان أحدهما لا يلتقي مع الآخر.

2 ـ سلطة وسلطات:

لاتظهر السلطة على هيئة واحدة لكنها سلطات مختلفة من حيث المساحة التي تتمثل فيها، ومن الشكل الذي تظهر فيه، وإن اتفقت ممارساتها مع خط عام يتعلق أولاً بثقافة المجتمع. تبدأ مع الفرد ـ باعتبارها تمارس خارج بنيته الذاتية وبالافتئات على حريته وإرادته ـ داخل الأسرة سواء كانت الأسرة الطبيعية أو البديلة. قد يكون طرفاها رجل وامرأة وقد يكون كبيراً وصغيراً، بالنسبة لسن كل من الطرفين، وهكذا لتصل إلى سلطة المجتمع على الفرد أو على الأفراد، ويدخل أيضاً في ذلك سلطة فرد داخل جماعة. ويدخل في باب السلطة الواسع سلطة الإدارات والقوانين والنظام الإداري والاقتصادي والسياسي والاجتماعي، وما إلى ذلك مما يدخل في باب السلطة الواسع، أي الفعل السياسي بما يمتاز به من تنوع وما يرتبط به من أيديولوجية معلنة أو مستترة، مختارة أو مفروضة، يتعدى سلطانها حرية الأفراد، وتنحو إلى سلوك يتميز بإخضاع الحاكم للمحكوم بصورة أو بأخرى، يتعدى السلوك المفروض إلى الفكر بأساليب مباشرة أو غير مباشرة، وبهيمنة لا حدود لها. في علاقة كهذه تصبح القوانين في حال وجودها غير محكومة بآليات محددة ، بل أداة بيد السلطة لا تحكمها معايير منطقية، ولا تنتظم وفق قواعد معروفة أو أنظمة مقنعة. وإذا وجدت المعايير والقوانين فإن تطبيقها يخضع لاعتبارات السلطة أو السلطات، وربما لأمزجة من هنا أوهناك، يضيع معها الأمان الذي هو أحد شروط أخلاقيات احترام حقوق الفرد الضرورية لنمو القدرات الإبداعية لديه، والمشاركة في علاقات إنسانية تتيح فرص الإبداع التي تشكل أحد أهم حاجات البشرية في مناخات عالم لا حظوظ في مواكبة تطوره لمن تفوته فرص الدخول في التنافس على الابتكار.

لا تنفصل السياسة عن الثقافة، كما عن سائر جوانب الحياة الأخرى. تحتاج السياسة إلى ثقافة تسوغ وجودها وتضفي عليها مشروعية تحتاجها. ولكنها، أي السياسة، تصنع ثقافتها، وهي لا تصنعها من العدم، بل تحاول أن تبنيها على أسس من ثقافة قائمة، ولا تتورع عن التعامل مع القائم منه بطرق وأساليب انتهازية في غياب رقابة مشروعة ومنظومة حياة أخلاقية. تعمل السلطة، أي سلطة

في أفق مصلحتها الذاتية قبل كل شيء، تدوّر الزوايا وتزيف في الثقافة السائدة وتحرفها عن دروب تطورها تحت غطاءات متنوعة محاولة وضع ممارساتها تلك تحت يافطات وشعارات متعمدة إثارة غرائزيات خامدة، وهكذا تتجه السلطة ـ مهما كان الحيز الذي تتحرك فيه ضيقاً ـ إلى تجميل ثقافتها لتغلبها على ما عداها. حلل أريك فروم سلوك الهيمنة هذا وبيّن نتائجه، بقوله:

" السيطرة على أذهان الناس للاحتفاظ بامتيازاتها (السلطة) كأقلية، والنتيجة المتوقعة تكون، على الأغلب، تشويه الشخصية الإنسانية، الانحراف بالثقافة المتشكلة وتحريفها إنما يهدف إلى إقرار مصالح مغايرة للذات الإنسانية الحقيقية".

ويضيف فروم إلى ما سبق:

"يصبح الإنسان (في نتيجة أخرى) مسلوب القدرة على الحب ومدفوعاً إلى التحكم بالآخرين".(1)

ومن سوء حظ البشرية أن الفكر البشري إزاء ضغوط الهيمنة دخل في أسر أيديولوجيات أنتجتها ظروف العسف الثقافي لتمارس بدورها عسفاً مختلفاً، لكنه في النتيجة أدى أدواراً لا تقل عما عارضته تزييفاً وتزويراً. وقع الفعل الثقافي بفعل ما تعرض له تحت سيل من الاتهامات حدّت من تطوره وتقدمه من مثل التخوين والتكفير والتصنيف فافتقر إلى أسباب النمو السليم القائم وما يتطلبه من شروط الحرية والانفتاح على الآخر وما يحتاجه من التعرف على المتغيرات التي تحصل في البيئات والمجتمعات الأخرى.

والمأساة فيما سبق أن التشويه الذي تحدثه الممارسات المنافية للأخلاق إذ ينال الناس، معظم الناس، لا يعفي حيتان المال ومافيات السيطرة والعنف من آثاره، خاصة في ظل سطوة وسائل الاتصال المعاصرة، من أن يطالهم مثل هذا التشويه على الرغم مما ينالونه من امتيازات تفتقر إليها أكثرية الناس في سائر المجتمعات:

" الحارس يصبح أسيراً، كما الأسير الذي يحرسه، وتلك القلة أو الصفوة أو النخبة تحت أي صفة تضع نفسها تصبح أسيرة نزعاتها المقيدة، ويصبح الذهن البشري عند الحاكم والمحكوم منحرفاً عن هدفه الإنساني في الجوهر الذي هو

الشعور والتفكير إنسانياً، واستخدام قوى العقل والقلب المتأصلة في الإنسان وتطويرها، فدون التطور الكامل يغدو الإنسان مشلولاً.(2)

تظل علاقة الثقافة بالسلطة تنتج مشكلاتها فتتداخل شبكة المعارف والمهارات والقيم والاتجاهات في السلطة ممارسة وقبولاً ورفضاً مع شبكة تفاعلات مماثلة تتكون فيها الثقافة في حالة تغيرها.

3 ـ العلاقة بين المثقف والسلطة:

من جديد ليس هناك من مثقف، كما أنه ليس هناك من ثقافة ، بل هناك مثقفون وثقافات. العلاقة بين (المثقف والسلطة) ليست إجمالاً على ما يرام، خاصة عندما تتشبث سلطة ما بأيديولوجية انغلاقية فلا تستطيع رؤية ما يخالف ما عندها من أفكار جاهزة وأحكام ناجزة. تنأى السلطة بنفسها عن أية مساءلة يمكن أن تتعرض لها، إلا إذا سلكت مسارها من الأعلى إلى الأدنى وليس العكس. يصطنع النظام تابوهاته الخاصة، وتكون إما متماهية مع تابوهات الثقافة السائدة في المجتمع أو متخارجة عنها. وتتجلى العلاقة هنا بتشبث السلطة بثقافة جامدة تقويها بالزجر والعنف، وغالباً ما تتمظهر بأنماط من التسامح، لا يصيب غير الفاسدين والمشعوذين والمتملقين وأصحاب الاتجاهات المقاومة لكل تغيير شأنه أن ينهض بالثقافة بحيث يكون ممكناً للمجتمع أن يدخل العصر من بواباته الأفضل ويجعله أكثر فاعلية في عالم التنافس على الإبداع، وإلا يكون في هكذا علاقة الباب مفتوحاً فقط للإمعان في تنميط أفكار الناس وسلوكهم وإقصائهم عن الإبداع والعصر.

4 ـ الفكر القومي العربي (جدل المثقف والسلطة):

نعود للتأكيد على أن المشروع القومي العربي لم ينتج مؤسساته الفاعلة التي تستطيع أن تأخذ على عاتقها عمليات ضبط وتفعيل النشاطات اللازمة لتطوير هذا المشروع ورسم خريطة طريق قابلة للتنفيذ وتمتلك المرونة الكافية بحدها الأدنى على اقتراح الحلول وإبداع البدائل عند اللزوم.

لا يمكن إلا الإقرار بأن الفكر القومي العربي يعاني من انحسار واضح ابتداء من ستينيات القرن الماضي. اتخذ الانحسار أولاً مسار الفوضى قادته المزايدات السياسية والفجاجة الأيديولوجية في عملية هروب إلى الأمام، رافقه التخوين تحت سيطرة فكرة المؤامرة. هرب الفكر القومي في جو الخداع والتكالب على السلطة إلى محاولات إيجاد من يرفع بهذه الفئة أو تلك ويمكنها من بلوغ أهداف أقل ما يقال عنها أنها رخيصة لا تستأهل ما يقدم لها من تنازلات. وقد اتجه بعضها إلى كسب ود جهات خارجية والاحتماء بها دون النظر إلى الثمن الذي يمكن أن تدفعه ، وعت ذلك أم لم تع.

وقع أصحاب الفكر القومي في فخ التنافس غير المحسوب العواقب، وسادت لغة التخوين بين كل طرف من الأطراف والأطراف الأخرى. واصطنع هذا الفكر عند كل فئة من فئاته مرجعيات أخرى لها ما يروجها في أجواء التزييف والتزوير ، وممارسة سياسات الإقصاء، حتى الجسدي منها. طغت على الساحة السياسية شعارات يسارية فيها من الفجاجة ما جعلها تدفع نحو مزيد من التراجع والكثير من الخسائر، كان أكثرها خطورة ما حصل للقضية الفلسطينية وقد دخلت بازارات البيع والشراء وخسرت الشيء الكثير مما ربحته في ساحات المعارك الفدائية، وما كسبته من خلال انتفاضات الداخل بأسلحتها البسيطة. أدى ما سبق إلى الانزلاق نحو قطرية مدمرة حملت بذور ضعفها في لحظات نموها المفترض. وعلى الجانب الآخر من الصورة حصلت ردة قاتلة في مختلف الأقطار العربية أدت إلى انتشار أفكار ما وراء قومية قطعت صلاتها مع العصر عاد حاملو بذرتها إلى زواريب الماضي، فبدلاً من التوجه إلى منجزات العلوم الإنسانية واستثمارها وفهم حركة المجتمعات الإنسانية وحاجاتها ومتطلبات النهوض بها، انكفأت على نفسها معللة سلوكها باسترجاع ماض أفل، اجتزئ عن سياقه التاريخي، غارق في الغيبيات، مستغرق في النصوص، منفصل عن حركة العصر والتطور الحضاري والنمو المعرفي.

كان الفكر القومي داخل مشروعه بحاجة إلى عملية نقدية موضوعها اختياراته وطرائقه وممارسات أشخاصه وفئاته، خاصة ما جرى اختياره هنا وهناك عند البعض من العودة إلى ماض كانت له شروطه، أو تجاوز ذلك إلى استعارة نماذج من بيئات ومجتمعات لها طبيعتها وخصائصها وقابلياتها المختلفة.

ليست الثقافة معطىً ناجزاً، كما سلف وذكرنا، إنها مشروع في حالة تشكل دائمة. في مراجعة عاجلة إلى المشروع القومي العربي، وقد بدده السلوك السياسي في تشكيلاته المختلفة والسلطة التي كانت وما زالت تعلن أنها قوامة عليه على مختلف أشكالها وتمايزاتها فيما بينها وفي كل واحدة منها باختلاف المراحل التي مرت بها، لا تعطينا أجوبة مريحة بقدر ما تثير الأسى وتبعث على التشاؤم من المستقبل، مستقبل المشروع ومستقبل الأمة.

كيف يكون الاطمئنان على المستقبل في الوقت الذي باتت العروبة فيه موضوعاً للتساؤل، إن من حيث أهليتها لحمل المشروع القومي والنهوض به، أومن حيث وجودها ذاته؟ مما يؤسف له أن هذا السؤال أخذ يتردد كثيراً هذه الأيام وكأن هوية المشروع قد أخذت إلى دائرة الشك. ليس غريباً أن تكون العروبة موضوعاً للتساؤل في زمن تكرست فيه قطريات يتشبث بها المستفيدون منها، من ساسة وأصحاب مصالح شخصية. غدت القطرية مشروع حياة وانتظمت في مؤسسات ، وصار القفز فوقها يحتاج إلى الكثير من النضال والجهد المبرمج والدؤوب. ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل أخذ العمل لتثبيته ينجر إلى مسوغات تفتيتية بإذكاء نزعات إثنية لم يكن وجودها يشكل أي وجود مؤثر.

استيقظت إثنيات لم يكن لأحد أن يثيرها أو يعدها شيئاً يستحق الاهتمام به في لحظات التوهج القومي بحيث أن أهلها لم يكن يراودهم شك في انتمائهم إلى العروبة. خرجت من تحت الرماد أدخنة الطائفية والمذهبية والعشائرية، وفاحت روائح ترسبات عهود الجمود والتردي أنتجتها قرون التخلف والتراجع، ولم يجد مروجوها صعوبات في البحث عن مبررات سلوكهم في قراءات غريبة عن اتجاهات العصر، وتأويلات تمت إلى عصور الانحدار.

شكل الفكر القومي العربي حامل ثقافة تسعى لاكتشاف الهوية القومية بعد أن غمرها تراب القرون، وأقصى صوتها عن الأسماع ضجيج التمذهب ودعوات التكفير والخوف من الجديد. انكمشت الثقافة متلفعة بعباءة الخلافة حيناً والاستسلام لتأويلات النصوص بعيداً عن الحركة الضرورية لاستشراف المستقبل

بسد منافذ العقل أحياناً أخرى. كان الوضع مغرياً لأية قوة خارجية طامعة أن تجد سندها في واقع مهترئ ولكنها لم تسلك طريقاً إلى تغييب الهوية إلا وجدته موصداً. كانت النهضة تنتظر من يجرؤ على إيقاظها، وجاء المستعربون ليلاقوها في أول الطريق في محاولة لخلق هوية مصطنعة هدفها استجداء ثقافة من خارج الثقافة، فشلوا، لأن اقتلاع الجذور كان صعباً مستصعباً. استثيرت خلافات واختلقت اختلافات تمحورت حول أيديولوجيات لم تنم نمواً طبيعياً ولم تنبت في تربتها. استطاع الفكر القومي أن يختار مشروعه، لكنه لم ينجزه. كانت المفارقة الكبرى أن المشروع أغلق على نفسه منافذ الحرية، الشرط الضروري لتطوير الثقافة ونموها، لم يتوافق الجهد المبذول لوضع المشروع في الحيز المناسب النظر في الواقع المتحرك، في مقابل ذلك الجهد نمت على جسد الأمة بثور غريبة، تجسدت في المشروع الصهيوني، وقد كان أهم هدف من أهداف من تبناه ودغدغ نزعات قديمة بائدة في عقول أصحابه ومن تبناه إبطال فعل النهضة. فقد أعلن الخارج، ولا يزال يعلن في أقواله وأفعاله، في استراتيجياته وتكتيكاته عداء سافراً لنهضة قومية، لم تتعامل ـ مع الأسف ـ مع الآخر إلا انبهاراً به أو إدباراً عنه. لم يستطع المشروع العربي الغض أن يرى الغرب خارج إنجازاته الاقتصادية والعمرانية، ولم يحاول النفاذ إلى البعد المعرفي والأخلاقي في نهضته.

استطاعت النخب من المثقفين العرب أن تتبين مشروع الأمة القومي، لكنها لم تنجزه. وظل الحوار في هذا الباب محكوماً بالشعارات الإطلاقية مما حال بينه وبين متابعة قراءة الواقع بعيداً عن إعمال العقل والاستفادة من تقدم الآخرين وتجاربهم بما لا يستغني عما في التجربة الذاتية للأمة من إرث يمكن توظيفه في اختيارات الأخذ والعطاء مع عالم لا يمكن لأية حركة قومية أو وطنية أن تتجاهل إنجازاته أو أن تدير ظهرها لتجاربه. احتاج المشروع القومي العربي للتجديد المستمر والمراجعة، خاصة فيما يتعلق بالعلاقة والحوار مع الآخر وقراءة المصالح المتبادلة فيها، لكن ما يحسب للمشروع القومي العربي أنه قد حسم خياراته، على الرغم من مجابهته من قوى التخلف ومن العداء المبرمج للقوى الأخرى المدججة بالقوة العسكرية المتقدمة إضافة للقوة المادية وآلة الإعلام المبرمجة والطاغية في قوتها أيضاً.

5 ـ الفجوة بين المثقف والسلطة:

يحكم التخلف جميع جوانب الحياة في البلدان المتخلفة، وتشكل الفجوات أحد السمات الأكثر وضوحاً في كل جانب منها. لبست الفجوات في "أنظمة" التخلف حالة نادرة. ثمة فجوات بين المعلن والواقع، بين الحاكمين والمحكومين، وثمة فجوات أخرى بين التعريفات والمفاهيم داخل السلطة وخارجها. وتبدو هذه الفجوات في أبرز صورها بين المثقف، مع التحفظ على التعميم، والسلطة.تنتج السلطة تلك الفجوة وتعمقها بحسب طبيعتها من جهة، وبحسب المرحلة في تطور مراحل قوة السلطة وضعفها، من جهة أخرى. وأهم ما يميز العلاقة بين طرفي المعادلة، إذا صح التعبير، رفض السلطة في أشد مراحلها ضعفاً أن تكون موضع تساؤل ليس أمام المثقف فحسب، بل أمام أية جهة كانت أيضاً، بينما تشرع لنفسها مساءلة أي كان ومحاسبته بالطريقة التي تريدها، وقد يصل بها ذلك إلى أقسى درجات العنف. وليس هذا هو الطريقة الأكثر شيوعاً، أو الوحيدة. فإلى جانب ذلك تلجأ السلطة حين تشاء إلى المراوغة وبذل الوعود الكاذبة والمجانية، ناهيك عن تزييف الوقائع وتزوير الحقائق.

تحمل الشاعر في مرحلة تاريخية سلفت تعسف السلطات حيناً، وتشرف في قبوله محظياً بين محظيات رموزها في أعلى مراتبها حيناً آخر. وما أشبه اليوم بالأمس فثمة أدوار للمثقفين من كتاب وحكواتية ترسم لبعضهم، أو يسوق بعضهم الآخر نفسه ليلعبها. ناهيك عن أدعياء الثقافة وباعتها وسماسرتها، بعد أن صارت قوانين السوق هي الحاكمة في شتى مفاصل الحياة. ألم نقل إن المثقف هو من كانت له طريقة معروفة في الحياة؟

يظل للفصل في الأحكام بين التعميم والتخصيص المعيار الأكثر قبولاً، من ذلك:

- كاتب يوظف قلمه مسوغاً سلوك صاحب سلطة، فلا تخجله تناقضات الأحكام التي يطلقها.
- كاتب لا يتوقف قلمه عن النقد، لا يثنيه شيء عن قول ما يقتنع أنه الأصح أو أن يشير إلى الخطأ من أية جهة جاء.

- كاتب قلمه منذور لخدمة سلطة ما يجملها ويبحث عن أي من سلوكها يحتاج إلى التزويق فيبحث عن الطرائق والأساليب التي تجلب لها التصفيق.
- كاتب رابع لا يشغله هم إرضاء السلطة يبعد، كما يقال، "عن الشر ويغني له".

ليست الفجوة بين أصحاب السلطة والكتّاب على مختلف نشاطاتهم الثقافية بنت العصر الحاضر، لكنها موجودة في مختلف الأزمنة والأمكنة، وجسرها لا يكون في المسالك المظلمة وليس إلى ذلك من سبيل إلا طريق الحرية.

استقرأ ابن خلدون العلاقة بين المثقف بعامة والسلطة، بالقول:

" اعلم أن السيف والقلم كلاهما آلة لصاحب الدولة، يستعين بهما على أمره، إلا أن الحاجة في أول الدولة إلى السيف ما دام أهلها في تمهيد أمرهم أشد من الحاجة إلى القلم، لأن القلم في تلك الحال خادم فقط منفذ للحكم السلطاني. والسيف شريك في المعونة كذلك حتى آخر الدولة حيث تضعف عصبيتها. وأما في وسط الدولة فيستغني صاحبها بعض الشيء عن السيف لأنه قد تمهد أمره، ولم يبق همه إلا في تحصيل ثمرات الملك من الجباية والضبط ومباهاة الدول وتنفيذ الأحكام. والقلم هو المعين إذا نابت نائبة أو دعيت إلى سد فرجة. ومما سوى ذلك فلا حاجة إليها. فيكون أرباب القلم في هذه الحالة أوسع جاهاً وأعلى رتبة وأعظم نعمة وثروة وأقرب من السلطان مجلساً، وأكثر إليه تردداً، وفي خلواته نجياً. لأنه حينئذ الآلة التي يستظهر بها تحضير ثمرات ملكه والنظر إلى أعطافه وتثقيف أطرافه والمباهاة بأحواله".(3)

6 ـ أوهام المثقفين وتبدّل بعض الكتاب:

ثمة تقاطعات في العلاقات بين مسار الثقافة من جهة، ومسار السياسة من جهة أخرى. لكنهما من جهة ثالثة يتوازيان فليس أي التقاء أو تقاطع. تصنع السياسة ـ كما قلنا سابقاً ـ ثقافتها الخاصة وتفرض على الآخر، وهو الكاتب هنا ـ أن يصوغ سلوكه على نمطها، على اعتقاد منها أن الثقافة السائدة ستتقولب حسب مشيئتها، أو أنه مطلوب من الكتاب أن يسوغوا ذلك ويزوقوه بحيث يصبح تسويق

ثقافة السلطة أحد أهم مهمات الكاتب. لكن الثقافة ليس من اليسير قولبتها، فلها جذورها وهي تتزيا بحسب المعطيات التي تواجهها بالزي الذي تخفي فيه قوتها، ولكن إلى حين، فهي تحت سلطان الهيمنة وسيادة نمط من ثقافة الخوف والتنميط تهرب، في فعل أقرب إلى التقية، إلى الوراء تستعيد أنفاسها فلا تبرأ لحظتئذ من التشوه... وقد يؤدي بها الأمر وهي تعبر عن عجزها أن تفتح في جسمها فجوات تمرر السلطة من خلالها ثقافتها التي تنزع نحو تملك يقتل الإبداع فتتردى الثقافة نحو أنماط من التواكل والمراءاة تسهم بدورها في اتساع الفجوة بين السلطة وبعض الكتاب الرافضين للتنميط أو العاجزين عن التكيف الأخلاقي مع ثقافة تسود على ما عداها بقوة الحاكم، أو بقوة ما آل إليه واقع لا مفر منه.

تتسمم العلاقة بين المثقف، بعض المثقفين، والسلطة، الواحد من هؤلاء يعيش أزمته الخاصة قبل أن يعيش أزمة مجتمع مع سلطة أو سلطات تتشكل لها مؤسسات لها حركتها وتأثيرها المتنامي. يعيش الكاتب، بعض الكتاب، صراعاً لا يملك السبيل إلى الهرب منه أو عدم الاعتراف به، صراع بين حلم الحياة الآمنة والحرية وبين ثقافة الخوف وعدم الأمان من الخداع والقمع. تنحدر النظم السياسية المعاصرة، عامة، نحو أشكال من الفساد متنوعة صارت تشكل القاعدة العامة يروج لها على صعد الحياة المختلفة ويشارك فيها طائفة ليست قليلة من المثقفين، وصار ذلك ثقافة ليست مقاومتها هينة أو يسيرة، قوامها النفاق والانتهاز والتلفيق.

يشارك المثقف السلطة ــ حين يتخلى عن قيم الحرية ـ في عمل لا يؤدي إلا إلى انحطاط ثقافي تنتجه تابوهات السياسة المتماهية مع انتهازية المثقف أو تتمازج مع إنتاجه. تنتج هذه العلاقة —على الأغلب ـ حالة تتيح للمشعوذين والمعادين للتقدم والمفسدين وأصحاب الاتجاهات المجافية لروح العصر أن تجد الطريق مفتوحاً لتشكيل حالات سلبية من السلوك والأفكار المحبطة لكل تغير ثقافي أو نمو.

تسود ثقافة من التلفيق فرسانها أشخاص يجندون أقلامهم لتسويغ أي سلوك للسلطة فيغدو هؤلاء مجرد أجهزة صوتية تروج ما يطلب منها باتباع طرائق من التأويل والتعليق والشرح المضلل. وصف الجاحظ، تحت عنوان ذم أخلاق الكتّاب، هذه الفئات من المثقفين بالقول:

"إن للكتّاب طبائع لئيمة، ومن الدليل على نذالة طبعهم قضاؤهم بالعلم لمن لا يعرفونه".

وأضاف:

ذم أخلاق الكتاب يكشف عن سطحية علومهم وهشاشتهم وسخف عقولهم وسوء مهنته".(4)

7 ـ النتيجة:

قد يكون في التوصيف السابق للعلاقة بين الثقافة والسلطة بعض الشطط، لكن ما يجوّز هذه المقاربة تلك التمظهرات لبعض أصحاب السلطة في البلدان المتخلفة، وهذا لا يدخل في باب التعميم بقدر ما يراد منه التوصيف لمقاربة واقع مترد في ظل نظام عالمي متوحش. وما يمكن أن يعد من أسباب ما جرى التركيز عليه يعود إلى أن بلدان العالم الثالث تحكمت بها بدرجات مختلفة سلطات سمتها العامة، باستثناءات قليلة، أنها وقعت تحت تأثير أمزجة فردية أو فئوية ذات آفاق محدودة. من هنا نمت أشكال متخلفة من العلاقة بين أصحاب الأقلام وأصحاب السيوف، إذا صدق الوصف.

وقعت العلاقة السلبية ليس بين الفئتين أعلاه فحسب، بل بين المثقف والناس وقد افترض هؤلاء أن الكاتب يجب أن يكون فدائياً، وهو في الواقع شخص كغيره لا يستطيع أن يضبط علاقته مع السلطة بما يخدم متطلبات الآخرين. يطلق الناس، في العادة، في نظرتهم للمثقف أحكاماً وتعميمات بعيدة عن الواقع والمستطاع وهم لا يعلمون أن المثقفين ليسوا طبقة أو عصابة أو تنظيماً. إن الكتاب خاصة والمثقفين عامة، كما وصفهم أحد الكتاب:

" في كل قطر و دولة هم أفراد وأفخاذ وقبائل وبطون وعشائر... ولا يعدم الأمير في أي لحظة أن يجد بينهم من يلمع صورته ويشذبها ويصدر الفتاوى ويبرر سلوك السلطة ويصف ما يصدر عنها بصفات ليست فيها أو منها".(5)

تعاني الثقافة من احتكار ما يدعى بمثقفي السلطة للمنابر "يشوهون الوقائع ويئدون الأصيل والبديع والمختلف. وهم متمرسون في مقايضة نتاج الأقلام وزرع الأوهام باحتلال المناصب واقتسام الأنصبة واحتكار المنابر وانتزاع سلطة المعرفة".(6)

8 ـ الاستشهادات

(1) أريك فروم: اللغة المنسية ـ ص69 ـ ترجمة محمود منقذ الهاشمي ـ اتحاد الكتاب العرب ـ 1991

(2) السابق ـ ص 62

(3) ابن خلدون ـ المقدمة ـ الفصل 35 ـ ص217

(4 خالد زيادة: الفكر العربي ـ العدد 53 ـ ص165

(5 المستقبل العربي ـ العدد 64 ـ ص198

(6 نبيل علي: الثقافة العربية في عصر المعلومات ـ ص38 –عالم المعرفة

ثقافة التغيير والخصوصية القومية

1 ـ ظواهر التراجع في الحياة العربية:

لم يستطع الفكر العربي المعاصر التخلص من سطوة التخلف الذي طبع الحياة العربية بطابعه قروناً طويلة، فالحياة العربية في مختلف جوانبها مثقلة بتركة القرون الماضية. لجأ العرب في بداية تطلعهم ويقظتهم في نهايات القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين ينفخون الروح في الماضي لعلهم يجدون فيه علاج تأخرهم، وبحثوا في تاريخهم عن أسباب يكونون معها قادرين على التخلص مما آلت إليه أوضاعهم سيما وقد لمسوا بالمحسوس تقدم غيرهم وتأخرهم. لكن التركة الثقيلة كانت تشدهم دائماً إلى الوراء، فما يكادون النهوض من كبواتهم حتى يواجهوا مشكلات تتجدد وعقبات تعيدهم إلى حيث بدؤوا. وكأن علاج ما ألم بنهضة اعتقد مفكروهم والفاعلون منهم أنهم قد وضعوا أرجلهم على السكة الصحيحة من أجله يتفاجؤون أنهم قد أضاعوا دليلهم. يعودون تارة من حيث بدؤوا، أو أنهم لا يعالجون النتائج على أساس من فحص ما أنجز. وقد يحكمون على ما أخطؤوا به بعدم الصلاحية وينزعون إلى تجربة جديدة يقلدونها فلا يبدعون ولا يدققون. وفي كل نقلة من نقلاتهم هذه كانوا يلجؤون إلى التسرع فوقع الفكر العربي في دائرة النقل أو البحث مجدداً في الماضي عن الترياق الذي تجاوزه العصر. وحين دخل السجال بين النخب العربية مرحلة جعلته حاداً وشرساً بين ما أسموه الأصالة والمعاصرة والمقدس والأقل قدسية، والحداثة وما عداها، أخذ الفكر العربي يبحث عن هوية الأمة في عوامل نشوئها تارة، وفي وعي أبنائها في الحاضر في القدرة على تميز شخصية الأمة تارة أخرى. وكان المفكرون العرب الذين تصدوا لفكرة بعث الأمة وقدرتها والتأكيد على عوامل الوحدة بين أقطارها التي فصل

الأغيار خرائطها وفق مصالحهم في الهيمنة على هذا الجزء أو ذاك، قد وقعوا تحت سيطرة شعور الاندهاش بنهضة الغرب شرقيه أو غربيه حيناً، أو بتقدم اليابان حيناً آخر، وحيناً جديداً بتقدم ماليزيا، ولا ندري من سيكون النموذج القادم.

لم يتجاوز الفكر العربي مرحلة الإعجاب والتقليد، حتى عاد مراراً ليبدأ من ماض أفل في خطوات منه نحو انتكاسة هنا، أو هزيمة هناك. لم يفتش في كثير من محاولاته عن أسباب وظروف هذه النهضة في مكانها وزمانها، في قوتها أو ضعفها ولكنه كان يهرب عن الإجابة في عملية تبريرية، وكثيراً ما كان يبدأ من النتائج ويفصل لها الأسباب، وينسب التقصير والانتكاسات إلى أسباب لا علاقة لها مباشرة بما حدث. وحين يضطر حاملو هذا الفكر أو المتلطّون به مواجهة المواقف والعقبات المعترضة، وهي على الأغلب موجودة ولم يكن لهم دراية بها، ولم يسبق لهم أن حسبوا لها حساباً لا يتنازلون عن كبريائهم ويهربون من إعادة النظر في أدواتهم وطرائق فحص ما أنجز وتقويمه، ولا يكتفون بذلك، بل يفتشون عن كبش فداء يلبسونه نتائج ما حصل. وغالباً ما يتهم فرقاء من المساهمين بالخطأ، أو ترمى التهم لجهات يلبسونها ثياب الأعداء، بدل التفتيش عن سبل الخروج من الأزمة أو الانتكاسة أو النكبة بتجميع القوى ومراجعة الذات بهدوء وروية لتجاوز ما حصل وترميم ما يمكن ترميمه.

العالم في تغير مستمر، والفكر العربي تتنازعه العصبيات، وتشغله الطقوس التي انتقلت من خانة العادة إلى خانة المقدس.

وما زالت الهوية العربية تبحث عن ذاتها وسط فوضى شملت المفاهيم وعبثت في الثقافة في غياب مؤسسات ومراكز بحوث جادة لا تخدم مصالح شخصية أو فئوية أو ظرفية بقدر ما يكون البحث منصباً على تفسير ظواهر وفهم اتجاهات التغير، وربط النتائج بأسبابها. عبثت المصالح الآنية بالإرث الثقافي للأمة واتخذت أنانيات بعض الباحثين والمغامرين من موضوعة الأمة وتاريخها دريئة تبرئ من خلال التصويب عليها أخطاء ارتكبت جرى طمسها واتهم الفكر القومي بالقصور وعدم الصلاحية. وجرى القفز فوق الواقع والتاريخ وتجاوز الشخصية القومية بمكوناتها وخصائصها إلى بحث غير مبرر عن صور استنسخت من هنا أو هناك دون

النظر إلى ما يحدثه النقل الأوتوماتيكي من بيئة إلى أخرى من مخاطر أقلها إلغاء الموجود، دون النظر إلى ما هو قابل منه للتعديل والتصحيح، إلى إشادة بناء جديد لا مرتكزات له مخالف لطبيعة التطور وشروط النمو.

ظلت الثقافة العربية تعيش أزمتها وتطرح أسئلتها بدءاً من تعريفاتها وليس انتهاء في علاقتها غير الثابتة بين طبقات وسلطات اجتماعية من جهة، وفي تصنيفات المثقف ودوره الاجتماعي والسياسي من جهة أخرى.

سطت السياسة على المثقف زمن كانت النخبة في المجتمع مغرمة بتعداد انتصاراتها، وانفتاح شهوة السلطة، فعلقت الثقافة في لغة الشعارات والصخب فحكم على الثقافة أن تعيش تخلفها، وأن تقع في فخ المفاجأة كلما أنتجت الممارسات غير المدروسة نكبة أو انتكاسة أو هزيمة.

سها المثقفون عن تجديد معارفهم واستغرقتهم أيديولوجيات وقعت أسيرة الثبات واستطابت الإصغاء أكثر من حبها للحوار والتفاعل مع التغيرات. تغيبت الثقافة عن التجدد المعرفي وأقسرت على إدارة ظهرها لعلوم ومقاربات جديدة لأسباب ليست موضوعية. دفن الأيديولوجيون رؤوسهم في رمال النظريات مبتعدين عن فهم التغيرات الاجتماعية والاقتصادية والمعرفية.

صحت النخب على دوي الانهيار الكبير الذي أحدثه سقوط المنظومة الاشتراكية، ووجد البعض أن ما رسخ لديه من معتقدات غير قادر على تفسير ما حدث. نشأت حالات من عدم التوازن اختلفت شدتها بين الأشخاص فاختلطت المصالح الشخصية مع الطموحات التي انكسرت.

التجربة العربية، كما وصفها أحد المفكرين العرب، ينقصها اقتران الحدث الفكري والثقافي بالحدث السياسي، مما يجعلها تعيش انفصاماً مابين التفكير والحياة العملية والفكرية. فيما استطاعت المجتمعات الغربية أن تعيش عصرها باستمرار، وأن يكون إيقاعها إيقاعاً منتظماً بين الفكر والحياة العامة فإن الناس في المجتمع العربي لم يستطيعوا، حتى الآن، أن يعيشوا ذلك.

أعاد إبراهيم العسكري إلى الذاكرة في مجلة العربي العدد 590 أسئلة طرحتها مجلة الهلال قبل ثمانين عاماً على عدد من الكتاب العرب والمفكرين، وذكر

بإجابات بعض من هؤلاء عليها في ذلك الحين. ومن يستعيد تلك الأسئلة والأجوبة التي جاءت عليها لا يجد فرقاً بينها وبين ما يمكن أن يجيب في زمننا هذا عليها كتاب وأدباء اليوم ممن يتصدرون واجهة الإبداع والفكر العربي المعاصر. الأزمة ما زالت قائمة، ولكن الفرق يكمن في نسبة التفاؤل وإمكانات تجاوز ما في الواقع العربي من إحباطات. جاء في إجابة الزهاوي الشاعر العراقي المعروف، رداً على أسئلة مجلة الهلال عام 1923:

" كلما فكرت في الأمر تولاني ارتجاف. أنا من مستقبل الناس على الناس أخاف".

ونقتبس من ميخائيل نعيمة قوله:

إذا كان لما تعودنا عليه أن ندعوه "رقياً" أو"تقدماً من معنى فمعناه يجب أن يقاس بالسعادة الناتجة عنه. ولا مقياس للسعادة في نظري إلا واحد. وهو مقدار التغلب على الخوف بكل أنواعه، خوف الجوع والألم والفاقة والعبودية وكل ما هناك من ضروب الخوف. لأن التغلب على الخوف يولد الطمأنينة الروحية التي لا سعادة دونها. فإذا كانت المدنية الغربية، كما نعرفها، تساعد على استئصال الخوف أكثر من المدنية الشرقية فهي حرية بالحفظ والتقليد. وحري إذ ذاك بالشرق أن يتبنى من الغرب برلماناته ومعاهده العلمية والمدنية ويتزيا بأزيائه الأدبية وألا يقف في تقليده عند حد.

أما جواب طه حسين فقد تضمن:

أفهم أن تُلقى مثل هذه الأسئلة في هذه الأيام التي نعيش فيها لأن الشرق العربي كله مضطرب اضطراباً شديداً لم يكن لنا به عهد من قبل، فمن المعقول أن نسأل عن مصدر هذا الاضطراب وعن قيمته وعن نتيجته.

على الرغم من مرور أكثر من قرن على بدايات اليقظة العربية فإن الصورة مازالت قاتمة، أو أنها أصبحت أكثر قتامة. وعلى الرغم من انطلاقة ثقافية وتعليمية واسعة تناولت جوانب حياتنا المختلفة، إضافة إلى التقدم الكبير في وسائط الاتصال والاحتكاك بشعوب الأرض جميعها، فإن الأمة العربية لم تستطع أن تقيم نهضتها بعد.

غابت عن الساحة أجواء التفاؤل التي سادت في مرحلة ما عند البدايات، وازدادت مشاعر التشاؤم فصورة المستقبل تزداد غموضاً، وملامحها لما تزل مثار شكوك. هل عدنا إلى البدايات؟ لعل البدايات لم تكن على ما هي الحال عليه اليوم. ليس في الصورة ثمة تراكم ثقافي يتناسب مع مسار التطور في المجالات السياسية والاقتصادية ، أو مع ما يحصل على المستوى الاجتماعي. بين مرحلة وأخرى، فراغ يتلوه فراغ آخر، وفي كل تحول يحصل على المستوى الفكري والسياسي لا يتم البناء من خلاله على ما سبق ولكن، تكون البداية على الدوام من الصفر.

يتغير العالم من حولنا ومن طبيعة الأشياء أن تكون إرادة التغيير متوافرة عند المجتمعات لتتمكن من التكيف مع المتغيرات. لكن ما يجري على المستوى الثقافي في البلدان العربية، وعلى الرغم من الضجيج الإعلامي لم يرتق إلى مستوى التحديات الحضارية. اعتمد البعض تقليد الغرب سبيلاً في مواجهاتهم الحضارية واعتبروا ذلك طريقاً إلى تدارك تخلفهم ولم يفلحوا. لأنهم لم يدركوا أن نهضة الغرب قد حصلت في مناخات مختلفة، وأن القفز عنها لا يمكنهم من تجاوز تخلفهم. حملوا في توجههم هذا نحو العصرنة كل الإرث المتخلف الذي كان سبباً في هزائمهم الحضارية والعسكرية. فاتهم أن الحضارة ليست لباساً جاهزاً أو وجبة أو مظاهر تقتبس. الحضارة طرائق تفكير وتجاوز لكل ما أثقل حضارة القرون الوسطى من استسلام لمسلمات والركون إلى بديهيات لا مصداقية لها في الواقع. ما زالت الثقافة العربية مثقلة بإرث تاريخي، وتعاني من فجوات تتسع فلا يدرك المهتمون السبيل إلى ردمها أو جسرها. إنها فجوات بين السائد والوافد تحكمها ضرورات للاتصال بها.

بين التغير وإرادة التغيير بين الثقافة والسياسة يظل الفكر العربي في حالة من عدم التوازن. ثمة إشكاليات في مفهوم الأمة في جدلية الموروث والوافد، وتتجلى حيوية الثقافة في تمثل الوافد وإدخاله في منظومة فكرية مرنة، فلا يطغى الأخير على الأول ولا يُقسر الأول ما تلاه ليكون على مقاسه. يغدو المشهد الثقافي العربي في حالة البلبلة والفوضى التي تحكمه كملابس البلياتشو في السيرك لا انسجام بين أجزائها أو ألوانها. يتجلى ذلك في ألوان الحياة من ملبس ومسكن ومأكل حتى في

الطب تتجاور العيادات الطبية والمؤسسات مع الكتب الصفراء يتخذها البعض مرجعاً تنتشر استخداماته في البيوت والمتاجر والدكاكين الصغيرة. وما زالت عجوز الحي والضيعة مرجعاً للتداوي والعلاج، ناهيك عن قطعان المشعوذين المنتشرين في كل مكان ينشرون ثقافة أبرز سماتها التواكل والتجهيل.

تنتشر المدارس والجامعات وتدخل وسائط الاتصال كل زاوية من حياتنا، ولكن إذا كان العلم يكتسب والمعرفة التكنولوجية من الممكن حيازتها، فإن ضعف القدرة على الإنتاج يظل حائلاً دو ن الاستفادة منهما، وأسباب ذلك كثيرة تكمن في الإرادة والإدارة وفي هياكل المجتمع ومؤسساته. لكن إرادة التغيير جديرة بوضع أهداف التغيير ومواكبة العصر على الطريق السليمة. ويستمر السؤال: أين هي تلك الإرادة؟

الفكر القومي العربي في هذه المرحلة الدقيقة من التحولات العالمية والإقليمية بحاجة إلى جهود كبيرة، بعيداً عن مغريات السياسة، تعيد الأمور إلى نصابها في حركة ثقافية متنامية تستمد عوامل نموها من جهد تربوي قوامه عمليات تعلمية تعليمية تهتم بتعلم الإبداع والفكر النقدي. لم يكن الفكر القومي العربي بدعاً في حركة الحياة العربية، وإنما كان وجوده نتيجة منطقية وطبيعية. فهو إذ تأثر، بشكل أو بآخر بالفكر الغربي في هذا المجال فقد ظلت له خصوصيته. التمييز بين السياسي والثقافي خطوة لابد منها في أي ممارسة ثقافية. والبداية في مراجعة الفكر القومي العربي لا تكون في التخلي عن الإنجازات التي حققها الرواد وإنما فصل الثقافة عن السياسة لا بالقطيعة بينهما، ولكن لوضع كل منهما حيث هو في المرحلة التاريخية من بدايات القرن العشرين حتى الآن. في هذا السياق كان للتوجه في دراسة تجربة ساطع الحصري وبعض التجارب التي عاصرتها أو جاءت بعدها ضرورته وأهميته في هذا السياق، كون جهود الرجل قد انحصرت، بشكل ما بالثقافة من خلال عمل تربوي تثقيفي قل نظيره.

وإتباع البحث بوضع حركة التغير على مستوى الكون سبباً لابد من الاهتمام به في عملية تغيير في الوسائل كيلا يكون دخولنا في العصر أعزل، والعالم من حولنا تتسارع خطواته ويعيش مرحلة تفجر معرفي وتقني وثورة في المعلومات

والاتصالات، وأن يتم ذلك داخل عمل مدروس فلا ننهزم في المعركة الحضارية الحالية بعد هزائمنا في مجالات أخرى كثيرة، فلا نخسر خصوصيتنا ليكون ممكناً تحصين عوامل البقاء والوجود لأمتنا وهي متوافرة وتعوزها الإرادة مرة أخرى، وليست أخيرة.

2 ـ في مفهوم الثقافة:

تظل الدعوة لفهم الثقافة ضرورية لرفع ماعلق عليها من أخطاء وتجاوزات، وحصرها بجزء منها كتحديدها بالأدب والفن وغيرهما مما يدخل في أحد أبواب الإبداع الضيقة.

ليست الثقافة أية ثقافة فضاء مغلقاً، بمعنى انتفاء التواصل والحوار والتفاعل مع الثقافات الأخرى. وفهم هذه الفرضية لا يكون ممكناً خارج فهم بناء المفاهيم، بخاصة في حقل العلوم الإنسانية، كونها تشكل وحدات لأية بنية فكرية. لكن المفاهيم، في أي مجال معرفي لا تثبت على حال أو على صورة ذهنية واحدة لا تتبدل. ويرتبط ذلك بعملية إنشاء المفاهيم، من حيث أنها عملية عقلية سامية. مع أن التدقيق في هذا الحكم الأخير لا يخلو من تعميم مخل. فليس منشأ المفاهيم أو عملية إنشائها عملية عقلية محضة، كما قد يتصور المرء، وإنما هي بالأساس ذات منشأ نفسي واجتماعي يتعلق بطرائق العيش والتعايش مع الأشياء والناس في هذا الكون المترامي الأطراف واللانهائي... يتصور الناس بوساطة المفاهيم نظاماً للبيئة بحيث يصير له معنىً ويصار بوساطته إلى بلورة تصورات ذهنية مما يساعد على تطوير النظرة إلى الكون وفحصه وتطوير فهم الإنسان له باستمرار. كما يصار إلى تعزيز الآليات النظرية المساعدة على إيجاد التصورات وبناء المواقف بحيث تصل بالبشر إلى مرحلة جديدة من التواصل، هي مرحلة التفاهم والحوار والتعقل، تعقل الإحساسات ومثيرات البيئة وطرز المدركات... لكنها، أي المفاهيم، لا تستطيع النهوض بوظيفتها هذه دائماً، بل قد تتحول في مرحلة ما إلى أدوات مناهضة لتلك الوظيفة فتنشأ لحظتئذ الحاجة إلى إعادة النظر فيها بسبب من شحنها بدلالات مختلفة عما آلت إليه في أثناء تشكلها. (1)

ليس مجدياً إذاً وضع تعريفات لمفهوم ما من المفاهيم إلا أن الحديث عن معنى المفهوم قد يكون مفيداً الوصول إليه عبر المدخل اللغوي، على أن يظل ذلك في حدود المقاربة. من المفاهيم التي يقع البحث فيها أسير التعريف والتحديد الجائر مفهوم الثقافة لأن الاختلاف في المدخل يستتبع الاختلاف في المعنى. ليس في استطاعة المفهوم استيعاب موضوعه، ما يبدو في لحظة ما أنه استغراق الموضوع في المفهوم أو تطابقهما فلا يجب أن يكون ذلك مبعثاً على اليقين، فأي مفهوم هو لا متناه بشكل من الأشكال على الرغم من ظهوره في لحظة بعكس ذلك. ثم إ، من المفيد النظر إلى المفاهيم أنها لانهائية، إذ إن كلاً منها يتضمن، مهما كان بسيطاً، مفاهيم أبعد منه وهذا هو سوء عدم الاطمئنان للتعريفات وإلى إقفال باب المعنى.

عانت المفاهيم المتعلقة بحركة الحياة على المستويات الاجتماعية من عمليات التنميط التي صاغتها أيديولوجيات تصارعت أحياناً، وتصالحت في أحيان أخرى، وتمادت هذه الأيديولوجيات على مختلف خلفياتها ومنطلقاتها وأهدافها بصوغ هذه المفاهيم وتفسيرها. وكثيراً ما أقسرت بعض المفاهيم لاستيعاب معان لا تنتمي إليها. لحق بالثقافة الكثير من الحيف بسبب من هذه الأساليب ، وليس ذلك فحسب، وإنما استخدمت في عمليات الدعاية والترويج ألفاظ التكفير والتخوين. انحرفت المفاهيم المتعلقة بالثقافة عن محاورها وأخذت دلالات ليست منها، إضافة إلى ذلك ومعه صيغ لمفهوم الثقافة تعريفات ذات حدود ثابتة، خلافاً لما غدا مسلمة في العلوم المختلفة، ناهيك عن العلوم الإنسانية إذ لا ثبات في المفاهيم إلا في حدود تناسب فترة أو مرحلة أو حقبة، ليس إلا. وبالنسبة لمفهوم الثقافة فهو يتعلق بكل ما يكتسبه الإنسان كنوع، من خلال تجارب الجماعات فيما بينها وفيما بين أفرادها، من جهة، وفي العلاقة الدائمة ليس بين الناس فحسب ولكن مع الطبيعة أيضاً، من خلال عمليتي التكييف والتكيف. بهذا تختلف الثقافة باختلاف قدرات الأشخاص والجماعات، وهذا سر تنوعها.

لا تتشكل الثقافة، أي ثقافة، برغبة شخصية أو بقرار من شخص أو من جماعة أو مؤسسة. لقد فشلت كل محاولات التنميط وسقطت، قديماً وحديثاً. وليس ممكناً أن تزرع الثقافة زرعاً وبمواصفات مرغوبة من هنا أو هناك، في هذه

البيئة أو تلك، إلا إذا كان المقصود بذلك إخضاع رغبات الأشخاص والجماعات وتفكيرهم لمعايير محددة، من جهة من الجهات، فإن أقل ما يمكن أن ينتج عن مثل هذه الممارسات التي تعتمد القسر والتلقين هو تجميد التفكير والثقافة داخل شرنقة الجمود والتأخر. الثقافة فاعلية اجتماعية تؤثر وتتأثر بحركة المجتمع في مجالات الحياة كافة. وهي عندما تتاح لها ظروف مناسبة من الحرية وإزالة المعوقات الاجتماعية تغدو فاعلية تساعد على الخروج من تحت مظلات الوصاية ومن شرنقة الخوف تقترب من واقع الحياة وتنمو وفق نواميسها فلا يحدها حد، ولا تقف عنده وتستطيع مقاومة التشويه والتزوير وتتغلب على تخلفها. ولكن دون ما ذكرنا خطوط حمراء كثيرة توضع من مصادر مختلفة من داخل الثقافة إياها ومن خارجها، ويظل الصراع مستمراً بين عوامل النهضة من جهة، وعوامل التخلف من جهة أخرى. ومنابع التدخل لا تعوزها الوسائل والأساليب.

ولما كانت الثقافة نتاجاً بشرياً اجتماعياً وليست مكوناً خارجياً، وإن كانت نتيجة للتفاعل الإنساني، ينطبق عليها كما على سائر المفاهيم الأخرى التي تقع داخل منظومتها أو تتداخل معها، ما ينطبق على أي مفهوم آخر من حيث إنشائه وقابليته للتغير والتطور. كثر الحديث في مقارنة الثقافة بالحضارة أو في قياسها عليها وكثيراً ما دخلت هذه المقاربات على الخلط بين الأمرين.

للثقافة سياقها، فهي إلى جانب كونها عنصراً قوياً تتأثر بالعناصر الأخرى الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، وتؤدي التغيرات التي تطرأ على البيئة إلى ضغوط وعقبات داخل الجماعة لتفرض نمطاً جديداً من التعلم والتكيف. (2)

وقد عبر موريس غولديير عما سبق بقوله:

"لا تقنع الكائنات البشرية، على نقيض الحيوانات الاجتماعية الأخرى، بمجرد الحياة في علاقات، بل تنتج العلاقات لكي تعيش، وتبتكر على مدى وجودها سبلاً جديدة للعقل والفكر، لتفكر وتعمل سواء بالنسبة لبعضها البعض أو بالنسبة للطبيعة المحيطة بها، ومن ثم فإن البشر ينتجون الثقافة ويصنعون التاريخ أو يخلقونه". (3)

وفي عصرنا الراهن حيث تقاربت المسافات بين دول العالم وقاراته واخترقت المعلومات والمعارف والابتكارات الحواجز القائمة بين المجتمعات البشرية، من حدود سياسية وتضاريس طبيعية، تتعرض هذه المجتمعات باستمرار لرياح التغيير من جهات العالم الأربع، فالتغيير عملية دائمة ومستمرة وتظهر على الدوام بأشكال متنوعة منها ما يكون بطيئاً ومنها ما هو أكثر سرعة.

فعلى الدوام تظهر هنا وهناك أنماط جديدة من السلوك تتعلق بأساليب العيش والاستهلاك ، مع ما يتبع ذلك من تبدلات بطيئة وعلى نطاق محدود أو تبدلات سريعة وواسعة في القيم والاتجاهات، منها ما ينمو بوتائر سريعة ومنها ما هو غير ذلك. ومنها ما سرعان ما يزول. ومنها ما يستقر على حساب ما هو أقدم منه. وفي أثناء ذلك قد يتعرض المجتمع إلى حالة من عدم التوازن من مستويات مختلفة من حيث الشدة، مما يستدعي إحداث عملية تكيف جديدة " من التمثل والمطابقة" يتفاعل فيها أو يتصادم القديم مع الجديد ... فتبدأ بعض القيم السائدة بالتلاشي، بعضها يقاوم وبعضها الآخر يتنحى لحساب الجديد.

لابد عند هذه النقطة من أن يحدد مفهوم التغيير بالتمييز بينه وبين مفهوم التغيّر، إذ إن فعل التغيير يتطلب فهماً لاتجاه التغير على المستويين العالمي والمحلي، وهي تغيرات تحكمها شروط طبيعية ومادية، يتعلق بعضها بمستوى التطور العلمي والتكنولوجي من جهة، وبطبيعة التحولات الكونية من جهة أخرى. التغير حركة دائمة مستمرة، قد تمر بمراحل بطيئة وعلى العكس من ذلك قد تتسارع وتيرتها وفي عصرنا هذا لا يمكن التغافل عن تسارعها المذهل، مما يفتح آفاقاً واسعة على مستوى العالم، لكن تسارعها هذا لا يسير بخطىً واحدة في كل المجتمعات، لذا فنحن نلاحظ بيسر ووضوح ظهور فجوات تتسع باستمرار بين المجتمعات في مجالات كثيرة التنوع "اقتصادية، اجتماعية، تقنية، معرفية..." وهذا هو سر التفاوت في مجال القدرات بين مجتمع ومجتمع آخر.

أما التغيير فيقصد به كل جهد يبذل للتكيف مع التغير والتفاعل مع مساراته والاستفادة من إنجازاته. ويقتضي الأمر وعياً بطبيعة التغير وبالإمكانات المتاحة، وبالقدرة على الاستفادة من الإمكانات الذاتية لتجنب السلبيات التي قد تحدث

والأهداف التي يمكن أن تتحدد على ضوء ذلك. وليس التغيير عملية منقطعة عن مسار حركة المجتمع، وإنما هي في حال تجاوز السائد استمرار يجمع بين التواصل مع الماضي والانقطاع عن بعض ما فيه. يصبح التغيير بهذا المعنى إضافة كيفية وليس محواً أو إلغاء. يكون التغيير إذاً، وإن كان المثير لحدوثه خارجياً، فعلاً يتم بأدوات ذاتية، أي أنه عملية تنبع من البيئة المرتبطة بها ويكون متوافقاً مع خصوصيتها الذاتية. أما عمليات التغيير التي تتم أو تحدث خارج هذه الخصوصية فتظل قشرة خارجية واهية غير قابلة للحياة، وإن نمت فإنها تنمو نمواً مشوهاً.

3 ـ الثقافة والتمايز الثقافي:

يحتاج المرء الدخول إلى الثقافة باستمرار من باب التأكيد على عدم الثبات والركون إلى التعريفات التي تظهر بين فينة وأخرى عند هذا الباحث أو ذاك. فهي – أي الثقافة ـ تتبدى في حركيتها ولا تفهم إلا في سياقات مجتمعية تتباين ظروفها وتتغير. وهذا ما تعنيه أية مقاربة تتلمسها. من هنا ينبغي فهم التأكيد على ما نقوله هنا وفي أماكن أخرى من البحث.

مع أن الثقافة عامل أساسي في التماسك الاجتماعي، لكن ما من ثبات فيها. فما يبدو ثابتاً سيفقد لونه ويبهت ولن يبقى على حاله، وإذا لم يتغير فإن عوامل التغير ستدركه بشكل أو بآخر وحينها يغدو ماضياً مقصياً خارج عصره ويفقد الخصائص التي تمكنه من التكيف فلا يتبقى منه غير العظم المتآكل أو الخشب الهش. الدعوة للتمسك بالثابت مخالفة للواقع ومدعاة للجمود وتعني فيما تعنيه إقفال باب المعنى وممانعة الولوج إلى باب الفهم الضروري لمواكبة التطور على مستوياته المختلفة. ويدخل الثابت في باب التحديد أو عند عتبات التفسير وهي في مجملها حدود تخطتها المعرفة البشرية.

لابد عند هذه النقطة من التنبيه أن الثقافة ليست خاصية بيولوجية موروثة، إنها علاقة اجتماعية. وليست مجموعة جاهزة من الأفكار أو التقنيات أو الفنون والعادات والمشاعر وأنماط العيش فحسب، إنما هي جميع هذه العناصر. توجه السلوك في جوانب الحياة المختلفة "سياسة ، اقتصاد..."، وهي المنظار الذي يرى

الفرد من خلاله ذاته ومجتمعه، ويتخذها معياراً للحكم على الأمور. وهي تعبر عن الهوية والتراث وطابع الحياة اليومية للجماعة، وبوساطتها تتواصل الأجيال. (4)

تعبر الثقافة عن نفسها من خلال سلوك الأفراد داخل الجماعة الواحدة على صورة مواقف وأفعال بحيث يغدو السلوك علامة ومظهراً من مظاهرها، ويمكن ملاحظة ما هو مشترك في تصرفات الأفراد إزاء موقف من المواقف، وعلى الرغم من استقلال هذه التصرفات لكنها تخضع لعلاقة محددة، إلى حد ما، بين الباطن الذي تصدر عنه والعالم المحيط بالذات مصدر الظاهرة.

وبحسب الموسوعة الفرنسية العالمية، الثقافة تعبير مستقل ومتفوق للفكر الإنساني الذي يحول معطيات العالم الحسي في مستوياته المختلفة إلى أشكال رمزية. بهذا يصبح الحيز هو ما توجهه القيمة الأسطورية التي يمنحه إياها الفكر، وهذا الحيز الحسي نفسه يصبح الحيز الطوبولوجي والمنظم، ويشكل إدخال التمثلات الفكرية إلى البحت قفزة كمية ونوعية في عالم الثقافة. (5)

أي أن الثقافة بهذا المعنى، هي مجموعة الرموز والتصورات والمعاني والمصطلحات اللغوية المشتركة، وهي أشياء يتم إنشاؤها من قبل المجتمع، بمعنى أن الأشخاص يشاركون في إنتاجها، هذا من جهة، ومن جهة ثانية تغدو الثقافة عنصر المعنى لكل النشاطات التي رفعت عالياً لتكون موضع التأمل والتفكير.

ويرى علم النفس الثقافي أن الظواهر النفسية تتكون عند دخول الفرد في نشاطات اجتماعية، والنشاط العملي الاجتماعي يشكل المؤثر الثقافي الأساسي على النفس البشرية. فأنشطة التعلم والعلم والفن والكتابة والقراءة تولد أنواعاً بعينها من الظواهر النفسية التي تكتسب بوساطة المشاركة في الأنشطة المتعددة. إلا أن ذلك لا يعني أن المؤثرات الثقافية تولد الظواهر النفسية ذاتها عند كل الأفراد، بخاصة المبدعين منهم، حيث يقوم كل فرد من الأفراد باستيعاب عناصر معينة دون أخرى من الثقافة ورفض ما عداها. فالظواهر النفسية ومنها الظواهر العاطفية في جوهرها ظواهر ثقافية، ومصادرها الفرد ذاته. يشير غوردون في هذا السياق إلى أنه على الرغم من أن التجربة العاطفية لأي شخص لها خصائصها الفريدة، إلا أن الثقافة هي التي تصنع المناسبة والمعنى وطريقة التعبير عن التجربة العاطفية "الحب

والرحمة والغضب..." وما العواطف إلا أنماط من الشعور والحركة والمعنى مشتركة اجتماعياً. (6)

يتحول الكائن الحي بوساطة الثقافة من كائن فرد إلى كائن اجتماعي وتحفظ الثقافة تماسك الجماعة البشرية، فأحد أهم سمات الإنسان كونه اجتماعياً، أي أنه مندمج في ثقافة مجتمعه. وعن فرادة الثقافة بالنسبة لكل مجتمع من المجتمعات، وأهمية دورها في حياة كل شعب من الشعوب، يقول هوين كاوتري:

"نحن لا ندرك حقاً فرادة الدور الذي تلعبه الثقافة في حياة شعب من الشعوب إلا عندما تتعرض هذه الثقافة وآلياتها غير المنظورة إلى الانحطاط، إما بفعل غزو التكنولوجية وإما نتيجة انتهاج سياسة مقصودة من الاعتداء الثقافي من أجانب أو على أيدي الوطنيين أنفسهم باسم العلم أو باسم ما يسمى تقدماً..."(7)

وتعاني الشعوب التي تحررت بعد النصف الثاني من القرن العشرين من جبروت الهيمنة الاستعمارية، ومن مشكلة تتعلق بهويتها ووجودها ذاته، فهي في سعيها إلى الحركة والانفتاح على الحضارة المعاصرة تجد نفسها في حالة من الفراغ الثقافي بسبب من انبهارها بعظمة التقدم العلمي والتكنولوجي الذي بلغته هذه الحضارة، فتجد نفسها وكأنها بلا هوية، بخاصة وأن مراكز التفوق المعاصرة تغالي في تفسير أسباب تقدمها فتحيلها إلى عقلانية من سماتها سلطان العقل والعلم دون الإحاطة الشاملة بتعدد العقلانيات، إذ لم يعد هناك عقلانية علمية واحدة. (8) وأنه لنوع من المغالطة أن يحصر النظر إلى الثقافة ويجري تحديدها بعنصري العلم والتكنولوجية فحسب، لأن الثقافة من المنظور التاريخي الواسع أكثر شمولية وعالمية. ومما يزيد من مخاطر هذه المقولة الاستسلام لها بفعل الانبهار بإنجازات الآخرين وتناسي الشعوب لخصوصياتها وتنازلها عن بعض مقومات هويتها وسعيها لاستعارة هوية أخرى، وهي في سلوكها هذا تضيع هويتها ولا تستطيع التعويض عنها في مشروعات الآخرين، كون هذه المشروعات، لا يتعامل أصحابها مع هؤلاء إلا بالاستعلاء وتسفيه هويات ما عداهم. وتعاني شعوب العالم الموصوفة بالتأخر من استهداف ثقافاتها وخصوصياتها بوسائل من العدوان متنوعة من منطلق وعيها لما تمثله الخصوصية الثقافية من قدرة على تحصين الشخصية

القومية، وما تشكله من معوقات لمشاريع الهيمنة والاحتواء، وتمثل هذا السلوك بالحملات التبشيرية، وإشاعة أنماط سلوكية تتعارض مع قيم المجتمع ومبادئه الأخلاقية. ويتعاظم السطو الثقافي كلما تقدمت التكنولوجيات المعاصرة فيتناول التاريخ والآثار واللغة، مع استخدام وسائط متطورة تزيف الذاكرة القومية. وليس ذلك فحسب، وإنما يصدّر هؤلاء بوساطة وسائط الاتصال المتطورة والفائقة التأثير ثقافتهم ومفاهيمهم ونظم حياتهم بقوالب جذابة وبراقة تستثير غرائز الناشئة دون حساب أو اهتمام بما يمكن أن يحدث لتلك الشعوب المستضعفة من جراء ذلك، متخلين عن دعاواهم في الدفاع عن حقوق الإنسان، وحق الشعوب في الحفاظ على خصوصياتها، وغير ذلك من دعوات تدعي الحرص على إشاعة الديمقراطية، وحقوق الإنسان، وحق الشعوب في تقرير مصيرها.

وفي الآونة الحاضرة صار الترويج لنظام عالمي جديد لا يبالي بالاختلافات القومية ويدعو إلى عولمة تتخلى من خلالها الأمم كافة عن خصوصياتها وثقافاتها، ويعمد إلى إخضاع المنظمات الدولية ومؤسساتها كافة، مع ما ينطوي عليه ذلك من عنجهية ونزعة عدوانية، في هذه الظروف لن تجدي الشعوب المتخلفة سياسة غمر الرؤوس بالرمال، فالتخلف يفرخ التخلف، ولا يكون الخروج من شرنقة التخلف ممكناً إلا عبر حالة من الوعي بالأزمة المستحكمة، والوعي بالدور الحيوي لثقافة متجددة تحفظ للأمة شخصيتها وتكون عاملاً فاعلاً في عملية التغيير، لكن هذا لا يعني التعري من التاريخ والتراث. في كتابه، خوف الحرية، يبرز أريك فروم مخاطر فقدان الذات وإحلال ذات أخرى مكانها، بقوله:

"إن فقدان الذات وإحلال ذات أخرى مكانها يدفع الفرد إلى حالة من انعدام الاطمئنان، فالشك يلاحقه، إذ إنه أساساً مرآة لتوقعات الآخرين منه بينما هو يفقد هويته إلى حد كبير، وفي سبيل تجاوز الهلع الناتج عن خسارة الهوية هذه نراه مضطراً للبحث عن هوية ما من خلال قبول واعتراف مستمرين به من قبل الآخرين".

فالوعي الثقافي وعي بخصوصية الثقافة القومية، لكن هذا لا يعني رجعة إلى الوراء وتمسكاً بكل ما في التراث، وتنكراً لطبيعة العصر وثقافات الأمم الأخرى.

فتحصين الشخصية القومية لا يكون خارج الخصوصية الثقافية القومية للأمة، على أن يفسح بالمجال لإتباع الأساليب الممكنة لإتاحة التواصل مع الثقافات الأخرى ومع الإنجازات العلمية والتكنولوجيات المتطورة. فأن تمتد الثقافة إلى جذورها التراثية لا يعني الانغلاق على الذات. يحيلنا ذلك إلى البحث عن قدرات الأمة على الإنتاج وتحديد ملامح التمايز الثقافي وعلاقته بمفهوم الشخصية المنتجة .

إن إبراز دور التمايز الثقافي بين الأمم ضروري للحد من تطرف إحدى هذه الثقافات وغلبتها على الثقافات الأخرى، وفرض نموذجها الوحيد فلا يكون معها أي إمكان لمشاركة بناءة من الثقافات الأخرى لإنماء حضارة إنسانية تحفظ للإنسان في أية بقعة من العالم حقه في الحياة والإسهام في تقدم الحضارة الإنسانية وازدهارها. ما جاء آنفاً ليس بدعة أو اجتهاداً مرتجلاً، لكنه ينسجم مع اتجاهات العصر، حيث تبدي الشعوب قاطبة اهتماماً متزايداً بتراثها وتاريخها، وهي تسعى إلى أن تكون شخصيتها الثقافية محترمة، من خلال مفهوم التنمية الذاتية. ويندرج اهتمامها هذا فيما تتطلبه حاجة تأكيد الذات، على المستوى الفردي، وتأكيد الهوية القومية على المستوى الجماعي، أو على مستوى الأمة، من خلال التواصل مع إرث الأمة المادي والفكري. ويبدو ما تقدم شديد الوضوح في سعي الشعوب حديثة الاستقلال في البحث عن جذورها الثقافية كيلا تشعر بنقص في هويتها الثقافية.

يشكل التمايز الثقافي بين الأمم والشعوب إثراء للحضارة الإنسانية، وهو ما يصبح عقبة كأداء في طريق الهيمنة التي تسعى إليها مشاريع الهيمنة والاستغلال والاستعلاء التي تديرها الاحتكارات العالمية، ودعاة نمذجة العالم وتنميطه وفق نمط استهلاكي تابع لمراكز محددة تتمثل اليوم بالنمط الأميركي، الذي يشكل خطراً لا على الشعوب الفقيرة فحسب، بل إن بعض الدول المتقدمة، بخاصة بعض الدول في أوروبة، أخذت تشعر بالأخطار التي تستهدف شخصيتها القومية وثقافتها. إنكار الأهمية التي يمثلها التمايز الثقافي ينطلق من موضوعة، تفتقر إلى المصداقية، تتمثل في اعتقاد بعض القوى بتفوقها العرقي وإقامتها لمفهوم في التمايز الثقافي يتمثل في الدرجة فحسب، ويتنكر للتمايز الكيفي والنوعي. ولا يعدم هذا

المفهوم الأنصار خارج دوائره وحدوده، من أولئك المبهورين به وبتقدمه في المجالين العلمي والتكنولوجي، فيشددون على أهمية الخروج من الماضي خروجاً يسلخهم عن هويتهم والجري وراء موديلات المشروع إياه.

لا تعني الحياة في العصر والتفاعل مع الإنجازات العلمية والتكنولوجية الانخلاع من التمايز، ولا تعني تخلي الجماعات والشعوب عن شخصيتها وثقافتها.

يقوم التمايز الثقافي على أسس أنتجتها العلاقات الاجتماعية والخصائص النفسية، ويشكل دليل صحة وعافية بالنسبة للأمة وعلى قدراتها في النمو المستمر والنضج. وكلما كان التمايز واضحاً فإنه يعبر عن مستوى أفضل في قدرة صاحبه، فرداً كان أم جماعة، على تنمية الجوانب الانفعالية وألوان السلوك الدفاعي مما يمكن الفرد والجماعة من التميز من الآخرين ويزيد في القدرة على التنظيم والتحكم في جوانب الشخصية الرئيسة في علاقاتها المختلفة والمتنوعة.

ويلاحظ علماء الاجتماع والأنثروبولوجية، من مدارس واتجاهات مختلفة أن التنوع الذي تمكن ملاحظته بين الأفراد، يبدو جلياً بين المجتمعات أيضاً، ويشكل ضرورة اجتماعية تاريخية وتعزيزاً لدينامية التطور الاجتماعي وضماناً للنهوض. وأن ارتقاء حياة البشر في شتى المجتمعات وعلى مدى التاريخ ـ كما يقول مايكل كريذرس ـ رهن تنوع الثقافات وتفاعلها وتباين الرؤى واختلاف الآراء وتوافر آلية اجتماعية تكفل التفاعل الاجتماعي الحر.(9) فحياة الإنسان الاجتماعية في التاريخ لتغيير الواقع هي نتيجة فعالية (الإنسان / المجتمع) وقوامها حوار عقلاني إرادي يشكل تفاعلاً حيوياً مجسداً في فعالية واقعية تفاعلية اجتماعياً تصنع التاريخ للمجتمعات والأمم والشعوب. ومن خواص هذه التفاعلية والفاعلية قابليتها للتنوع الثري. فكل (إنسان / مجتمع) يبني مجتمعه وينتج ثقافته على نحو خاص به زماناً ومكاناً ويكتسب خصوصيته من إطاره الإيكولوجي ومحيطه العقلي ونهجه في الحوار والتفاعل."10" بهذا تتمايز الثقافات في الوقت الذي لا يتوقف نموها وتجددها، وتصبح قادرة على الإسهام في التغيير الذي لا يتم بغير ثقافة التغيير، حين تكون منفتحة على عصرها بلا عقد أو خوف أو شعور بالدونية.

كان التمايز باستمرار مرافقاً للنمو البشري. فقد اكتشف الانثروبولوجي الشهير مالينوفسكي أن قبائل التوبندي كانت تخاف من التوائم وكذلك من التشابه العائلي، لأن كل تشابه يوحي إليها بالنزاع، وما نسميه اليوم مشكلة الهوية يحمل في طياته صفة التوائم، كما يقول عالم الاجتماع الفرنسي رينيه جيرار.

وفي هذا السياق يمكن الحديث عن نسق ثقافي رئيس فيه من الملامح ما يميز ثقافة الأمة عن ملامح غيرها من الأمم. لكن هذا النسق العام أو الرئيس تندرج داخل منظومته أنساق فرعية عديدة، منها ما له علاقة بنمط الحياة الاقتصادية وبأنماط أخرى اجتماعية وغير ذلك. وعليه يصبح ممكناً الحديث عن ثقافة المهنة أو الحرفة، كما يمكن الحديث عن ثقافة سلطة وتمييزها من ثقافة شعبية أو ثقافة معارضة. ونميز وفق ذلك أنساق ثقافية لها علاقة بالحياة السياسية، عندما تتعدد في مجتمع السياسة أشكال السلطة والهيمنة وما تنتجه من ثقافة أو أشكال وأنماط، توظف للحفاظ على سلطة ما أو التغطية على ممارسات معينة، تنتمي إلى هذا النسق ثقافة القوة التي كانت تكرس بقوة السيف قديماً، وهو ذو غمد واحد، فيكون الحوار مقموعاً بالشدة المناسبة. ويستهدف مثل هذا النسق العقل والتفكير، لدى الحاكم والمحكوم على حد سواء، وإلا فما معنى أن يضيق على التعددية ويصبح أي خروج عن الخطاب الأوحد سبباً للتخوين والتكفير.

في مجتمع الثقافة القادر على النمو والتطور يكون المطلوب تعدد المرجعيات مطلوباً لإفساح المجال لتفتح العقل ولسماع الصوت الآخر، كما يتنافس الثاقفون والمثقفون ويتبارى المعلمون والمتعلمون لإنتاج ثقافة قابلة للحياة والنمو.

4ـ الثقافة في عالم متغير:

في زحمة التغيرات المتسارعة التي تحدث في مختلف جوانب الحياة "السياسية والاجتماعية والاقتصادية، وعلى مستوى العلم والتكنولوجية، وما تحدثه ثورة المعلومات والاتصالات" يتجه الاهتمام إلى الثقافة لتكون إحدى السبل المطلوبة لإعادة التوازن في المجتمع، وتجاوز حالات القلق. وليست هواجس الخوف والقلق من العناوين الكبرى التي تحتل الصدارة بين الموضوعات المطروحة على العالم،

مثل العولمة واهتزاز القيم والنظام العالمي والقطب الواحد وثورة المعلومات والتفجر المعرفي والتكنولوجي وتصادم الحضارات وحوارات الثقافات وغيرها، إلا بعض نتائج هذه الحالة التي تكاد تكون أحد أهم المشكلات التي تعاني منها الإنسانية في سائر أنحاء الكون. إضافة إلى تغيرات كونية أخرى، أهمها:

1 - ما أثارته هذه الظواهر من مشكلات أحدثت جدلاً حاداً في بلدان مختلفة، من بلدان تبحث شعوبها عن هويتها عبر أحقاب أو حقبة تاريخية، إلى شعوب أو جماعات ابتكرت لنفسها تاريخاً تنسب هويتها إليه، إلى أمم أخرى استغرقها البحث التاريخي، واستنزف الماضي والبحث فيه معظم جهود القوى والقدرات الفاعلة لديها... فالقلق على الهوية أحد أهم ما تتصف به تصرفات وأفعال الناس في كثير من الأمكنة.

2 - يبحث الجميع عن هوية يشعرون بخطر اهتزازها بحيث يحيق بها تهديد ينذر بتقويضها، ويطرح بديلاً لها. ولعل أخطر ما يتهدد الهوية تحكم النزعات العنصرية والمعتقدات التقسيمية للعالم مما يهدد قدرات الإبداع الثقافي، ويسوق المنجزات العلمية والتكنولوجية لخدمة مصالح ضيقة لدول أو جماعات على حساب مصالح دول وجماعات أخرى. ونتج عن ذلك حالات من الإرباك في بقاع مختلفة من العالم ـ كما يقول أنور عبد الملك ـ تحت لافتات الحالات الاستثنائية، ومنها أدوار الجيوش في السياسة، وانبعاث النزعات الإثنية، والتحول الهادئ والعميق للأديان مما يجعل منها ظواهر أيديولوجية فلسفية ثقافية في إدارة المجتمعات والحفاظ عليها. "11"

3 - ومع تزايد النزعة الاحتكارية في عوالم الأموال وتصارع الشركات الكبرى، لا يستطيع هؤلاء الذين ينظرون إلى عالم ما بعد الصناعة، وما بعد الحرب الباردة إلا الاعتراف بتردي المستويات الأخلاقية وتراجعها المستمر. فنهاية الحرب الباردة جددت توزيع القوى بين الدول والأسواق والمجتمع المدني بدلاً من التكيف بين المجتمعات. وأن هذا التحول لم يجعل الدول والحكومات الوطنية تفقد استقلالها الذاتي ببساطة في ظل عولمة الاقتصاد، لكن تتقاسم هذه الدول أدوارها السياسية والأمنية وهي من لب السيادة، مع دوائر رجال الأعمال. ومع المنظمات

الدولية، ومع طائفة واسعة من تجمعات المواطنين، مما أخذ يعرف باسم المنظمات غير الحكومية. والواقع أن التركيز المتزايد للسلطات بين أيدي الدولة الذي بدأ عام 1648 مع سلام وستفاليا❖، قد انتهى على الأقل في الفترة المقبلة(12)

وعلى الرغم من أن الادعاءات المتزايدة إلى تعزيز احترام حقوق الإنسان، فإن جميع المصالح الاقتصادية، في حالة بعد حالة، وبلد بعد بلد، تسودها إملاءات النزعة التجارية على حساب كل الاعتبارات الأخرى يحيط بنا اليوم نوع من البيئة الهائلة، بيئة الاستهلاك والوفرة، المكونة من تكاثر الأغراض والخدمات والخيرات المادية، التي تشكل نوعاً من الطفرة الأساسية في علم بيئة الجنس البشري. فأهل الرخاء والوفرة ـ كما يقول جان بودريار ـ لم يعودوا محاطين كثيراً، مثلما في كل الأزمنة، ببشر آخرين. فتجارتهم اليومية لا تشابه تجارة أندادهم، إحصائياً وفقاً لمنحنى تصاعدي، إلا من حيث تلقي الأغراض والرسائل واستعمالها، منذ التنظيم المنزلي البالغ التعقيد والعشرات من عبيده التقنيين، حتى المنقول الحضري وكل الآلية المادية للاتصالات والفعاليات المهنية وصولاً إلى المشهد الدائم للاحتفاء بالغرض في الإعلانات وفي مئات الرسائل اليومية المتدفقة من الوسائل الإعلامية، من أصغر أجزاء الآلات والأدوات إلى الاحتدامات النفسية الرمزية التي تغذيها الأغراض الليلية الآتية لتراودنا حتى في أحلامنا. ويضيف بودريار لا ريب أن مفاهيم المحيط والجو لا ترتدي هذا المعنى إلا منذ صرنا في العمق أقل عيشاً بجوار بشر آخرين، من حيث حضورهم وحديثهم، ومنذ صرنا نعيش تحت نظرة البكماء لأغراض مطبعة مهلوسة تكرر على مسامعنا دوماً الخطاب نفسه، خطاب قدرتنا المحنطة كعيون الميدوزا، وحديث وفرتنا المحتملة، حديث غيابنا عن بعضنا البعض كبشر. وكما يغدو الطفل / الذئب ذئباً بحكم العيش مع الذئاب، فقد غدونا بدورنا، على هذا المنوال تدريجياً نعيش في عصر الأغراض، أي إننا نعيش على إيقاعها وبمقتضى تعاقبها المتواصل فنحن الذين نشهد ولادتها اليوم، نشهد اكتمالها ومدتها، فيما كانت الأغراض في كل الحضارات السابقة، وكذلك الأدوات أو الآثار الخالدة، هي التي تبقى وتعمر بعد الأجيال البشرية.(13)

يندرج في الإطار نفسه ما يتعلق بحقوق الإنسان والديمقراطية وعلاقات التحالف، والحفاظ على توازن القوى، والتحكم في تصدير التكنولوجية والاعتبارات السياسية والإستراتيجية الأخرى. (13) وفي ذلك ما فيه من اتساع الفجوة في الدخول بين الدول المتقدمة وغيرها من الدول الفقيرة، وما ينطوي عليه ذلك من بروز العنف والانقلابات وما شابه، يندرج في ذلك أيضاً التفاوت الصارخ في دخول الأفراد في المجتمع الواحد.

4 - أما الإنجازات الهائلة، على مستوى الاتصالات وثورة المعلومات، فلم تكن أقل تأثيراً في الثقافة. فقد تغيرت أساليب التواصل بين البشر من حيث الكيف والكم، وصار ميسوراً للإنسان الوصول المباشر إلى المعلومات التي يحتاجها من خلال الحاسب المحمول بالدخول إلى الطريق السريع للمعلومات، كما حدث تحول كبير في مجال القراءة والاطلاع، إلى جانب السهولة في الحذف والنقل والتخزين وغير ذلك مما يحتاجه البشر. فتغيرت حدود الزمان والمكان والفضاء ومسائل أخرى كثيرة. وترافق ذلك مع تغيرات في أنماط متنوعة من السلوك البشري، مع بروز تطورات ثقافية ارتبطت، أو نتجت عن هذه التطورات، كثقافة الاستهلاك التي يروجها الإعلام. وتسهم سياسات الإعلان عبر الفضائيات وشبكات الاتصال في تضخيمها، إلى جانب أمور كثيرة نتج وينتج عنها باستمرار توسع الفجوات بين البشر، وأهمها وأخطرها الفجوة المعرفية. ومن الأخطار التي تتهدد الثقافات العدوان الإعلامي والتضليل الذي يطال الذاكرة والتاريخ، وتزايد أساليب القرصنة الإلكترونية، والاختراقات الأمنية على مستوى المعلومات.

5 - ومن الإنجازات العلمية المعاصرة التي ستحدث تأثيرات كبرى في أنماط العيش ما يتعلق بثقافة الهندسة الوراثية وما سيترتب على تقدمها. وسواء كان العالم مستعداً أو كان غير ذلك فإنه سيدخل عصر الهندسة الوراثية وستتأثر البيئة به. وقد يكون فقدان التنوع البيولوجي أحد نتائج ذلك، ولا يغيب عن الأذهان التأثيرات الاجتماعية والسياسية التي يحدثها. ومن جانب آخر يتنبأ بعض المعلقين أن الهندسة الوراثية ستساعد الأجيال القادمة على النجاة من كارثة بيئية منتظرة، يحذر منها اليوم دعاة حماية البيئة. مع العلم أن الهندسة الوراثية ليست إلا إنجازاً علمياً

وتكنولوجياً، فلا هي بالسيئة ولا الجيدة، لكن البشر في استعمالهم لها هو ما يثير الأسئلة الأخلاقية. (14)

6 - فتحت الحركات الاجتماعية والسياسية، بخاصة بعد الحرب العالمية الثانية، الباب واسعاً لتغيرات تتعلق بدور المرأة في المجتمع، مع ما رافق ذلك من دعوات مثل"تحرير المرأة وتحررها، وحقوق المرأة"، إضافة إلى ظهور الحركات النسائية على المستوى الوطني والعالمي التي تطالب بمساواة المرأة مع الرجل، وبمحاربة أساليب العنف التي تكون المرأة ضحيتها الأولى، وإلى ما له علاقة بموضوع المرأة والرجل من مشكلات أخرى. وكان من نتائج ذلك أن أصبح صوت المرأة مسموعاً بقوة في كثير من بقاع العالم مع بقاء فوارق كبيرة بين مجتمع وآخر في هذا المجال. ويمكن تلخيص بعض معالم التغير هذه بما يلي:

أ - رفاه المرأة تؤثر فيه بقوة متغيرات، من مثل قدرة المرأة على اكتساب دخل مستقل وفي توفير عمل لها خارج المنزل.

ب ـ في الكثير من البلدان توافرت حقوق للمرأة في الملكية الخاصة.

ج ـ أخذت دائرة تحرر المرأة من الأمية بالاتساع وأصبحت شريكاً ضرورياً في اتخاذ القرارات داخل الأسرة وفي ميادين أخرى خارجها.

وهكذا أصبح وضع المرأة المتدني يتجه نحو التلاشي في البلدان المتقدمة، إذا ما قورن بوضع الرجل وربما بتنحي الفرق نهائياً، على عكس ما هو عليه في معظم البلدان الفقيرة. ففي هذه البلدان الأخيرة لا يزال عدم التكافؤ في العدالة موجوداً، بحيث تتحمل المرأة فوق طاقتها، فيما عدا أن تعليم المرأة وعمالتها ـ وهو لا يزال محدوداً ونسبة الأمية مرتفعة بين الإناث ـ أخذ يشكل أحد أسباب الاتجاه إلى تنظيم الأسرة.

الثقافة القادرة على التكيف مع عالم متغير هي الثقافة المتجددة التي يستطيع الإنسان "فرداً كان، أو جماعة " من خلالها تأمين حاجته إلى تأكيد ذاته ووعيها ووعي اتجاهات المستقبل والاندماج مع منجزات العصر، وفهم طبيعة التغيرات والتفاعل معها، ابتداء من الحاضر دون القطيعة مع الماضي. وهي الثقافة المرنة

المتطلعة إلى جسر الهوة بين مجتمعها والعصر، في عالم لا يرحم الذين يضعون رؤوسهم في الرمال، ويعيشون في ماض لا يبرحونه فتتسع الهوة بينهم وبين العصر، فلا ينفعهم ندم ولا تقبل الأجيال القادمة في المستقبل توبتهم، ولا تقبل أعذارهم.

5 ـ الثقافة العربية والتغيير:

لا يمكن النظر إلى الحياة العربية ومن ضمنها الثقافة خارج متغيرات العالم. مع الاعتراف بأن التغير لا يحدث على وتيرة واحدة، أو وفق مسار واحد وبالسرعة ذاتها في مختلف جهات الكون ولدى شعوبه كافة. وقد دخلت مظاهر التغير حياتنا ولكنها، ويا للأسف، لم تتكامل مع البنية المجتمعية، وبقيت مجرد غلاف خارجي ليس أكثر. لأنها ـ كما يقول محمود أمين العالم ـ غير نابعة من حياتنا نفسها، وغير متحققة بإرادتنا الواعية. ومازالت مجرد مظاهر تحديثية مشتراة من الغير، وليست ثمرة اختيارنا وإنتاجنا. لذلك ظلت محتفظة بخارجيتها فينا دون أن تمس خصوصيتنا الداخلية العميقة. (15)

التغيير في الحياة العربية استمر يجري على السطح، مستورداً للاستهلاك لم يتفاعل مع خصوصية الأمة الثقافية، فلم يندمج مع موديلاتنا السابقة ونماذجنا الخاصة ليصبح عاملاً أساسياً فيها، يوظف في عمليات إنتاجية إبداعية. فعلى الرغم من كل القشور الخارجية، في الملبس والمسكن والمأكل وغيرها، استمرت البنية العقلية والاجتماعية متخلفة... مع ما رافق مسيرتها من أنماط سلوكية معاندة ما زالت تطبع الحياة العربية بطابع التواكل والاستسلام للفكر الغيبي، إلى جانب سيادة السلوك العشائري والطائفي. وهذا المظهر العام للثقافة العربية بسبب من عدم قدرته على التكيف مع تغيرات العالم، لم يستطع مغالبة التأثر فيما يحدث حولنا لكنه ظل في ذلك منفعلاً وليس فاعلاً. ومن أشكال هذا التأثر:

1 - إن الأجيال الجديدة من الشباب قد تأثرت بثورة المعلومات والاتصالات، وما رافقها من أنماط استهلاكية، قد أحدثت تغييراً في طموحاتهم، مما ترتب عليه حدوث ثورة صامتة في القيم والاتجاهات والمهارات أصبح معها

الشاب يعيش حالات من الارتباك والقلق، وازدواجية في التفكير وتصور حركة التغير في العالم. وكان من نتائج ذلك خضوع الجيل لتأثيرات متناقضة، فهو يملك مهارات أفضل للتعامل مع القضايا العامة، لكن وعيه تُشكِّلهُ وتلونه وسائل الإعلام وشبكات الاتصال وتكنولوجيا المعلومات، وقد أخذ ذلك يفقده الثقة بالمواعظ والإرشادات التي مازالت تشكل واقعاً بعيداً عن مسايرة التطور والفعل فيه ومن خلاله. وقد طاول ارتباك الناشئة فكرة الأمة والقومية وليس ذلك فحسب، فقد بدأ يفقد ثقته بالدولة ذاتها كمؤسسة وطنية. فراحت الناشئة توظف ذكاءها في إذكاء نزعات مرضية ونعرات تهدد السلم الأهلي والعيش المشترك، إلى جانب نمو الأنانيات الفردية والنرجسيات والغلو في التصورات عن الذات والآخرين. وإزاء هذا الخلل وعدم التوافق مع المجتمع يتبع الشباب أنماطاً من السلوك تؤدي بهم إما إلى الانسحاق أو الهروب إلى المخدرات والاختلاس والتدليس. (16)

2 - ومن مظاهر الثقافة العربية المعاصرة الهوة الواسعة بين النظر والعمل ـ كما يقول زكي نجيب محمود ـ فهي تتأرجح بين موروث يؤمن بالغيبيات والسحر والخوارق، وبين نهضة علمية تهيؤها المدرسة والتعلم تقوم على تزايد أعداد الخريجين الجامعيين، وهم في تزايد مستمر نتيجة التوسع في التعليم الجامعي وفي مختلف البلدان العربية، مع تنوع الاختصاصات. ولخص "زكي نجيب محمود" ذلك بأن المثقف العربي تتنازعه نزعتان تتعلقان بتحصيله المعرفي في مجالات العلوم المختلفة، وهي حصيلة ذات مستوى عقلي رفيع، وأخرى تتعلق برواسب اجتماعية تتعلق بالخرافة والأسطورة والسحر والغيبيات. أي أنه في الفكر العربي المعاصر تناقض بين أن يكون للطبيعة قوانينها وأن لا يكون. وقد مثل لهذه الظاهرة جلال صادق العظم في كتابه النقد الذاتي بعد الهزيمة، بذلك الطيار الذي يتعامل مع أحدث منجزات العلم والتكنولوجية، حين يعود إلى الأرض بعد رحلة الطيران يبحث عن " بصارة" تقرأ له طالعه.

3 - في عالم سريع التغير يظل الناس منقادين إلى مثل هذه الترهات، لا تستثني منهم خريجاً جامعياً، نراه في إقبال أعداد غفيرة من الناس من مستخدمي

الانترنيت إلى النفاذ عبر الشبكة إلى مواقع قراءة الأبراج، إضافة إلى متابعة قراءة زوايا ما تقوله النجوم.

وفي المساحة الأكبر، خارج خريجي الجامعات والمتعلمين، لا صعوبة في ملاحظة وجود نمطين للثقافة متجاورين ومتداخلين أحياناً، لكنهما يتباعدان أكثر مما يتقاربان. ثقافة نخبة عصرية تتجسد في الآداب والفنون وطرائق العيش، وثقافة شعبية تنعكس في آداب المائدة والمسكن والحديث والغناء الشعبي والأعراس والأعياد والمدارس الدينية والمآتم والولائم والرقص أو ما يسمى بالفولكلور الشعبي.(17) مما يزيد من تعقيد المسألة الثقافية العربية وانطلاقتها نحو المستقبل لتكون أداة تغيير، والبدء بانطلاقة صحيحة، هيمنة الماضي على التفكير العربي. وهي هيمنة لها من القوة ما قد يجعل مثل هذه الانطلاقة أمراً قريباً من المستحيل، بخاصة ونحن العرب إجمالاً ما زلنا نعيش نتائج متراكمة لما بدأ في معركة صفين منذ أربعة عشر قرناً حتى الآن ومازال، ولم يتوقف. وظل هذا الوعي العربي الراهن يشكل عنصراً محورياً في إشكاليته.(18)

4- الجذب والنبذ في الثقافة العربية بما يتعلق بقضايا معيشية مختلفة ذات صلة بالنظرة والاتجاهات الدينية والمرأة والعلم. يدخل ذلك في نطاق الأزمة التي تعاني منها الثقافة العربية وهي جملة من التعارضات تجد الأمة نفسها في موقف العاجز عن تجاوزها. إنها أزمة وجود تتمثل بحالة التردي والتخلف والتجزئة التي تعيشها الأمة العربية، فإلى جانب التبعية الاقتصادية للغير تبرز التبعية الثقافية، تتمثل بأنماط من السلوك أخذت في الظهور على سطح الحياة، وقد عممتها الفئات الطفيلية التي نمت على جسد التنمية العربية فحرفتها عن مسارها السليم فلم تستطع أن تحقق أهدافها المرجوة، بعد أن سرقتها لتنمو على أنقاضها فئة من أثرياء المؤسسات الرسمية وإدارات القطاع العام، ففتحت الطريق أمام ممارسة المضاربات والاتجار بالعقارات وترويج نمط الحياة الاستهلاكي، وأشاعت مفهوماً للعمل اقترن بصفة الارتزاق والاستهتار بالقيم وبالمعايير الإنتاجية، فعمت الرشوة والوساطة مع ما رافقها من انتعاش الأفكار المعادية للعلم والتطور وانحطاط في المستوى التربوي واضطراب نظم التعليم، وتعميم الجهل واحتقار الفكر العلمي من خلال الحصول

على الدرجات والألقاب العلمية بطرق ووسائل لا أخلاقية. كما تعمم فكر قطري يغذ السير لإنشاء ثقافة قطرية على حساب الثقافة القومية، من خلال فصل حوادث التاريخ عن انتظامها بمسار تاريخ الأمة، وتفسيرها بما يسوغ القطرية على حساب الفكرة القومية.

وتعاني الثقافة العربية منذ بدايات النهضة العربية من سطوة السياسة عليها فكان أن تخلت النخب السياسية العربية عن المسألة الثقافية ولم تعرها ما تستحق من الاهتمام، وركزت انتباهها على العمل السياسي، وترافق ذلك مع إهمال المستعمرين لهذا الجانب أيضاً، فاتجهت النظم التعليمية التي أشرفوا على تأسيسها وإدارتها إلى خدمة مصالحهم، بحيث أنه لم يكن في اهتمامهم سوى تكوين كوادر تشغل الوظائف المدنية، وتكون الواسطة التي تصلهم بعامة الشعب. وبموازاة ذلك وتتمة للخط نفسه سارت النخب الحاكمة بعد الاستقلالات القطرية في سياساتها التعليمية بتخريج أفواج من خريجي المدارس والجامعات يصطفون أمام الدوائر الرسمية والمؤسسات يعرضون أنفسهم سلعاً للتوظيف خارج أي هدف تنموي واضح. ومن جانب آخر فإن الأحزاب السياسية والحركات الاجتماعية انصب جل اهتمامها على العمل السياسي على حساب المسألة الثقافية، حتى إن بعض المتنفذين والإقطاعيين فيها كانوا يرون في الثقافة والنهوض الثقافي خطراً يهدد مصالحهم وينتقص من امتيازاتهم. وكان هم الأيديولوجيات السائدة أن تبث كل أيديولوجية في الأذهان أحقيتها على حساب سائر الأيديولوجيات الأخرى، انطلاقاً من وهمهم أنهم يمتلكون الحقيقة كاملة، ويطلقون في هذا الاتجاه أحكاماً مطلقة، مما جعل الأيديولوجية مهيمنة على الثقافة مكرسة الأولوية للسياسي على الثقافي.(19) فات هؤلاء المسيسون من حكام وقادة أحزاب لا يهتمون بغير مصالحهم وبما يسمح لهم من امتلاك سلطات والتمترس عندها وإقفال أبوابها وراءهم، بدلاً من البحث عن أسس ارتباط البنى الفوقية بالبنى التحتية التي يكون تفعيلها شرطاً لازماً لأي تطور وتقدم على المستوى السياسي. غالباً ـ خاصة في البلدان المتخلفة ـ يكون العسف والظلم والاعتداء على الحقوق السياسية، واتباع وسائل وأساليب لا تنتج غير التنميط والقولبة وتبيح لنفسها إلغاء الفكر النقدي عبر نظم تربوية مخالفة لشرعة حقوق الإنسان، فلا يؤدي ذلك إلا إلى تعميم ثقافة على

قياس هؤلاء ضاربين عرض الحائط بكل ما يسمح بنمو ثقافي يتطلب مناخات تفسح في المجال لهؤلاء لإطلاق الحريات التي تمكن الفرد والجماعة من خلال ما تحدثه تعدد المرجعيات وتنوعها من تفتح النشء على دروب تساعد على إطلاق قدراته مما يؤدي إلى نمو طاقاته الإبداعية ومساعدته على تمايز يثري الحياة الثقافية .

5- القطيعة بين المؤسسات الثقافية العربية والإعلامية، وهي قطيعة ليست محصورة بين مؤسسات قطر مع غيره من مؤسسات الأقطار الأخرى فحسب، ولكنها قطيعة بين المؤسستين الثقافية والتربوية من جهة، والمؤسسة أو المؤسسات الإعلامية في القطر الواحد من جهة أخرى. وتشكل هذه الظاهرة سمة عامة في العمل المؤسساتي والإداري العربي، كل يغني على ليلاه. علاقة معدومة، أو أنها في أحسن الظروف، شبه معدومة. التعليم الجامعي لا صلة له بالمجتمع ،على الأغلب. الجامعات جزر في محيط، إن وجدت علاقة بين جامعة وأخرى فهي أوهى من خيط العنكبوت. وتكون علاقات ليست ذات صلة بمحتوى التعليم أو بطرائقه، وإنما ـ في أحسن الأحوال ـ توظف لصالح مكتب ما، وتلبي مطالبه ليس أكثر.

6- المثقفون خليط غير متجانس، إن من حيث محتوى الثقافة، أم من حيث تفاعلهم مع الثقافات الأخرى. من مثقف سلفي يتصف سلوكه بانفعالية اعتاد مواجهة أصحاب الآراء المخالفة أو المختلفة بترديد "كليشيهات" جاهزة من نصوص دينية أو حزبية أو... لا يخرج عن النص ولو كان مخالفاً لما تواضع عليه البحث والتفكير العلميين. أو أنه لا يناقش أو يحاور خارج تفسيرات مستهلكة عفا عليها الزمن. يتجه السلفيون من انتماءات مختلفة "متدينون، ماركسيون، قوميون و... " بعناد واضح للاستشهاد بنصوص حتى على مستوى النقد الأدبي أيضاً بهدف تخوين أو تكفير الآخرين، وفي كثير من الأحيان للحط من قيمة الآخرين وآرائهم، مما يصل إلى حد التهديد، أو ما قد يوصف بالإرهاب.(20) حقق المثقفون القوميون كثيراً من المكتسبات النظرية التي تغذت من الممارسة، لكنهم لم يتقدموا كثيراً في صوغ إجابات نظرية متماسكة عن أسئلة فرضها السير في مشروع سياسي هو المشروع القومي ... وعلى الرغم من توافر النفس المنظومي المميز في معظم تيارات الفكر القومي العربي المعاصر، لكن ما أنجز انصرف إلى مجال النظرية الاجتماعية

الثقافية وإلى التاريخ والتاريخ المقارن ولم يحتفل كثيراً بميدان النظرية السياسية التي هي مدماك أي مشروع قومي ... أنتجوا نظرية الأمة، ولم ينتجوا نظرية في الدولة القومية. (21)

7- لا يزال الفعل الثقافي العربي فعلاً متخلفاً، إلى حد كبير. والمقصود بالفعل الثقافي ذلك الذي يهدف إلى تحليل البنى الاجتماعية العربية ودراسة أسباب تخلفها وأدوات إنتاج تبعيتها، كي يتم تلمس أسباب الخروج من وضع التردي إلى وضع الفعل والإسهام في عملية تنموية شاملة. فالبحث العلمي متخلف، ولا يخرج الاهتمام به من دائرة الدعاية والإعلام وتلميع الوضع الحضاري العام. مع ملاحظة تجنب الإسهام بعمل بحثي استراتيجي يتناول مفاصل هامة من مفاصل الحياة الاجتماعية والثقافية، بسبب التخوف من كشف عورات العمل الرسمي والمؤسساتي. فإن سمح لمثل هذه الأبحاث، فإنها سرعان ما تجير عن هدفها العلمي إلى هدف آخر، وغالباً ما تتوظف في عمليات إعلامية تهويشية أو تضليلية. ومثل هذه الأفعال لا تنتج أبحاثاً تسهم في إنتاج مثقفين فاعلين منتجين. ولا يدرك هؤلاء المهيمنون بفعل مراكزهم السلطوية أنهم ينهون وجودهم حين يروجون لثقافة مزعومة تؤمن لهم هيمنتهم. لخص ماشيوسكي ذلك بقوله: لم تستطع الفاشية إنتاج طبقة حاكمة سياسية وثقافية تؤمن لها الهيمنة الأيديولوجية ... وعندما أطيح بموسوليني عام 1943 لم نجد مثقفاً واحداً يقرأ أنه كان معه.(22)

8- على الرغم من الدعاية وشآبيب الإعلانات التي تمطرها وسائط الإعلام عن الاهتمام بالصالح العام وشؤون الأفراد. ظل المواطن العربي مغيباً من قبل الأنظمة القهرية، وفي أحسن الظروف مصاباً بالإحباط، فسياسات إطلاق الشعارات الكبرى بنبرات عالية لم تؤد سوى إلى خذلان المثقف وهو يدفع دفعاً إلى الهرب من طاحونة الكلام ومن تعمية المفاهيم فيرتد، في معظم الأحيان، إلى قيم عتيقة مخالفة لروح العصر، طالباً الأمان، فقد أصبح الرياء والمداهنة والخداع من البضائع الأشد رواجاً. فلا يسمع الإنسان إزاء كل الهزائم التي منيت الأمة بها والتي تتالت وفق وتيرة متسارعة سوى تسويغات وتسميات تخرج المرء من عقاله. حشي قاموسنا الثقافي بمفاهيم ومصطلحات لا يقنع العقل بصحتها ولا بتفسيراتها،

فغدت الهزائم شكلاً من أشكال النصر، والتخلف نوعاً من أنواع التقدم. وحيث لم يجد المرء في كل ما يسمع وما يوعد به ما يحقق له الأمن والطمأنينة، ارتد باحثاً عنهما في كنف القبيلة أو الطائفة. وارتد الناس بعامة إلى تداول الخرافات لعلها تكون العزاء لهم ولتكون بديلاً لكل ما وعدوا به من إنجازات وحياة رغيدة تسودها المساواة.

9- عاد الناس يحنون إلى الثقافات الغيبية المغرقة في مجافاتها للعقل والمنطق. فالتحول عن الموضوعية والتفكير العلمي والمنطق وغياب الفكر النقدي لم يكن سوى أحد نتاجات الأزمة في الثقافة العربية التي تلعب خيبة الأمل من أجهزة التثقيف العربية دوراً هاماً في تشكلها. فالردة إلى الغيبيات ليست مجرد عملية نكوص، أو ردّة فعل طبيعية، وإنما هي نتيجة منطقية لما تروجه الأنظمة المفلسة أخلاقياً بشكل منظم للإجهاز على عوامل القوة في حركة المجتمع التاريخية، بالتشجيع على كل ما هو معاد للعقل، وتسهم في صناعة الإشاعات والخزعبلات لتستفيق الجوانب المتخلفة من الثقافة. وتكاد تصبح ظواهر السحر والشعوذة والإيمان بالغيبيات وانتظار المفاجآت للتخلص من المصاعب والأزمات هي الجزء الأهم من ثقافة المجتمع. فسهل هذا استيقاظ كل العلل الاجتماعية من عشائرية ومذهبية وارتد الناس من حالة الولاء للأمة إلى الولاء للطائفة والعشيرة...

الأمة التي ليس لها في شؤونها حل ولا عقد ــ كما يقول جمال الدين الأفغاني في العروة الوثقى ــ هذه الأمة التي لا تستثار في مصالحها، ولا أثر لإرادتها في منافعها العمومية، وإنما هي خاضعة لحكم واحد إرادته قانون ومشيئته نظام، يحكم ما يشاء ويفعل ما يريد، تلك أمة لا تثبت على حال واحد، ولا ينضبط لها سير فيعتورها الشقاء... ويتناولها العزل والذل(23)

10- البحث عن الذات خارج نموذج الفكر العربي: ينطبق ذلك على الإصدارات الثقافية والخطابات الأيديولوجية، إذ كانت تبشر دوماً بالمخلص في نماذج الآخرين. وكان في العصور الحديثة يتمثل نموذجها بالغرب الأوربي حيث انخدع به المفكرون، وقادة الرأي منتظرين الخلاص على يديه وفي تتبع نموذجه آملاً فيه التخلص من التخلف الذي أعادوه للحكم العثماني بسبب من تسلطه ومحاربته للأفكار التنويرية. لاقت مبادئ الثورة الفرنسية صدىً حسناً في أذهان المتعلمين

والمتنورين من العرب، وكذلك كان شأن الثورة الأميركية. وعندما صدم بعض العرب بالسلوك الإنكليزي والفرنسي مع قضاياهم يمموا وجوههم نحو القارة الجديدة. وترافق هذا التوجه بعملية الانبهار بالنموذج الثقافي السائد والمهيمن من مثل تمجيد العقل والعلم، بحيث صارا صنمين مقدسين. وصار هم الكاتب والمفكر الإكثار من استخدام المفاهيم العلمية والموضوعية والعقلانية، ولم يكن ذلك بالنسبة للأكثرية منهم سوى اهتمام بالشكل على حساب المضمون، وصار ذلك بالنسبة لهؤلاء قفز فوق الواقع. وسرعان ما انتشر بين ظهراني الثقافة العربية والفكر العربي متحزبون لهذا المذهب دون غيره من المذاهب .. بل قد يقفز المفكر الواحد بين فترة وأخرى من هذا المذهب إلى ذاك. ونادراً ما نقع على واحد من المشتغلين بالفكر يثير قضية من القضايا بهدف الوقوف على الحقائق أو بهدف التفتيش عن الجديد فيها. وصار هم المثقف ونصف المثقف أن يقسر الوقائع لتصير في ذهنه موافقة لما تمذهب به. " فلا يقف من العلم ـ مثلاً ـ موقفاً نقدياً بل يصير هو معيار لكل علم.(24)

أدى البحث عن الذات خارج نموذجها بالمثقفين العرب بصورة عامة إلى الاستهانة بوحدة الشخصية القومية للأمة في جو من الانبهار المحموم بأنماط مستوردة وتابعة. ونتج عن ذلك حالة من الضياع والسقوط والتخلف وسيادة مفاهيم التنظيم القطيعي المستندة إلى أمجاد من التطور السطحي والتنمية الفارغة من مضمونها الإنساني.

كم كان ضرورياً استقراء النماذج الأخرى، لا كوصفة جاهزة إذا ما طبقناها نجحنا، وإذا لم نفعل فشلنا، بل كمنظور تاريخي يسمح باستشفاف التجربة التاريخية لشعوب سبقت غيرها في ميادين التنمية والتطور ... ومن خلال استقراء مؤسس وفق منهج تحليلي يسهل عملية المعرفة الأفضل لواقع الأمة وتاريخها .. ومن خلاله يصبح الأمر ميسوراً لدراسة وتشخيص العوامل المساعدة على إعاقة التطور واستمرار حالة التخلف.

11- تخلف النظم التعليمية وقلقها: لعله من أصعب ما يواجه العرب في سعيهم لتجديد المشروع القومي العربي يتمثل في نمط مشروع ثقافي عربي، بخاصة والعرب يتنازعهم تصوران لثقافتهم أو لمشروعهم الثقافي العتيد، كما أشرنا سابقاً،

الأول يتشبث به دعاة التمسك بالقديم وببناه التقليدية في عصر كل شيء فيه متغير. والثاني ينادي به دعاة الالتحاق بالمشروع الغربي والاستتباع له. فالأول لا يستطيع أن ينتج سوى التخلف، والثاني لا ينتج غير التبعية. فكأن المشروع الثقافي محكوم عليه بدوام التخلف أو باستمرار التبعية. وبين سندان هذا ومطرقة ذاك تعيش النظم التعليمية والتربوية العربية قلقها وتخلفها وتدني مستويات مخرجاتها. فسواء نظرنا إلى هذه النظم من جهة المحتوى، أم من جهة الطرائق والأساليب والوسائل وأدوات التقويم فلا نكاد نلمح في الصورة ما يبعث على التفاؤل. ولعل أوضح ما في صورة التربية العربية المعاصرة غياب فلسفة تربوية واضحة تنتظم النظم التربوية في الوطن العربي. ففي الوطن العربي فلسفات لا فلسفة واحدة، حتى على مستوى القطر الواحد لا تنتمي مواد المنهج الدراسي جميعها إلى الفلسفة الواحدة، وإنما تتداخل فلسفات مختلفة تكون أحياناً متباينة. وتخضع معظم مشروعات الإصلاح التربوي، إن لم نقل كلها لأمزجة أفراد مغرورين بكليشهات نظرية بعيدة عن متطلبات الواقع وحاجاته وقابلياته.

أما من جهة التعليم والطرائق المتبعة فإنها تقوم على أسس لا توحي بخروج النظم التربوية عن نمط التلقين ... وهو نمط يطبع مختلف أنماط العلاقات في المجتمع العربي على مستوى الإعلام ـ زج العقول كافة في قالب النظام السائد وما يتبع ذلك من تعطيل للفكر واستهانة بالعقل والعواطف، وبأبسط الحقوق المدنية والقيم الأخلاقية ــ وفي الأسرة والشارع وداخل المؤسسات الرسمية وشبه الرسمية، الإنتاجية منها وغير الإنتاجية.

أما التعاون العربي بين المؤسسات التعليمية فهو معدوم أو شبه ذلك، على الرغم من بعض الاتفاقيات في هذا المجال. وتكاد الصلات داخل القطر الواحد أن تكون مقطوعة بين مؤسسات التثقيف، فكل في واديه يغني. وإن حصل بعض التناغم في هذا الموضوع فإنه يجري بأسلوب حوار الطرشان، لا أكثر.

12- تعامل القوميون العرب مع الفكرة القومية كمقدس ناجز وليس كحاجة وضرورة اجتماعيتين، بحيث تكون أساساً لقيام مجتمع أكثر قدرة على بناء حياة سياسية اجتماعية ثقافية، ليست ذات طابع شمولي ثابت الأركان، حالة متاح

داخلها دائماً افتراض الحلول وتجريبها. اكتسب السلوك القائم على هذا الأساس بالإطلاقية في شكلها السياسي، وفي الحوارات وأساليب التفكير الاجتماعي، وتصور البناء الاقتصادي. وحين تستدعي ظروف التغير تغييراً لإعادة التوازن المفقود، كان الاعتماد في تحقيقه ـ على الأغلب ـ يعتمد على نماذج مستوردة جاهزة، دون النظر إلى الاختلاف في الظروف، فيتم قسر المؤسسات لتسير وفق نمط محدد سلفاً وقسرها على الأخذ بها دون تعديل ملموس أو تغيير أو حذف أو زيادة، فيقفل باب الاجتهاد والتفكير.

يحدد أنطونيوس كرم في كتابه " العرب أمام تحديات التكنولوجية" الأزمة في الثقافة العربية بقوله:

"تكمن أزمة الثقافة العربية في قصورها عن مواكبة التكنولوجية المتقدمة وعدم القدرة على التواصل مع قيمها. الثقافة العربية تعاني من أزمة قيم، والقيم العربية مزيج من قيم رعوية وأخرى من زمن الحضارة الزراعية" الاتكالية، (انتظار الغيث، ومن قيم فرضتها عصور التأخر العربي عقدة الخواجا، والحذر من التغيير، وغياب روح المبادرة) ومنها قيم جاءت مع نمط السلوك الاستهلاكي التقليد والانجرار وراء طلب المتعة، والنزعة إلى الثراء السريع). لا يزال العرب غير قادرين على الانخراط في العصر بفاعلية تجعلهم منتجين أو مشاركين في الإنتاج. إنهم يحبون التكنولوجية وينبهرون بها وبتقدمها، لكنهم يطلبونها قشرة خارجية يغلفون بها تخلفهم. ويوهمون أنفسهم قبل الآخرين أنهم دخلوا العصر وأنهم شركاء فيه".

لا يتم امتلاك التكنولوجية في نطاق عملية سياسية اجتماعية واقتصادية تنموية قابلة للتعايش مع الآخرين والتفاعل مع المنجزات العلمية والإسهام بها. فعقلية العشيرة وسيد العشيرة هي العقلية السائدة تجدها في سلوك الإداري في المصنع والمزرعة والمدرسة .

هذه الأنماط السلوكية والفكرية مشاعر تصل حدود الغضب عند كثيرين من المفكرين والمثقفين العرب، بحيث باتت تسبب حالات من العصاب عند بعضهم. في دراسة لهشام جعيط نقتطف هذه الفقرات التي تلمح إلى ذلك قال:

"أشعر أني ذليل لانتمائي إلى دولة بلا أفق وبلا طموح، دولة متسلطة، حين لا تكون استبدادية، حيث لا يجد لا علم ولا عقل ولا جمال للحياة، ولا ثقافة حقيقية. هذه الدولة تقمعني. وفي مجتمع الإقليم الريفي أختنق، كما أعاني من كوني مقوداً من زعماء جهلاء معدومي الثقافة. وإني كمثقف أعيش حالة عصاب نفسي.

وإن من الإنسانية والشرعية أن أسقط ضيقي على مجتمعي. لكن الاحتجاجات الشرعية موجودة هنا لتشهد أن هذا الضيق ليس من صنع المثقف... أمتنا المكبوتة في رغباتها بتأمين العمل للجميع والمسؤولية السياسية أصبحت أرضاً بكراً لأفراد رحّل في أماكنهم، عين على التلفاز وأخرى على جواز السفر.(25)

6 ـ ثقافة التغيير ومتطلبات النهوض العربي:

يسلك التغيير طريقه عبر الكفاح المنهجي والمتواصل ضد التعصب المتلطي وراء الثبات الثقافي. ويتم إنتاج الثقافة باستمرار نتيجة التغيرات على المستوى الكوني ولا يعني ذلك تجاوزاً لمفهوم الهوية، أو تناقضاً مع الخصوصيات القومية في مجالها. الثقافة كائن حي في معنى ما، ولأنها كذلك فإن أحد أهم خصائصها أنها قابلة للنمو، ولكن قابليتها هذه لا يعني أنها تفقد هويتها. فكما في كل ما يتعلق بالحياة وبالنمو، سواء على المستوى الفردي، أو المستوى الجماعي في الثقافة جانب يتعلق بالثبات ، وهو هنا ثبات نسبي وليس ثباتاً بمعنى البقاء على حال واحدة. وكما أن الإنسان الراشد هو في الوقت نفسه الطفل الذي كان والراشد الذي صار إليه، كذلك هي الثقافة تتأثر بالتغيرات في الوسط القريب والبعيد لكنها لا تفقد هويتها. بالمعنى ذاته يقول جاك بيرك:

"لا تنفصل الهوية عن التاريخ . لكن، لكي يصار إلى الحفاظ على الهوية عبر الأطوار التاريخية، لابد من وجود ثوابت بدونها سيكون الأمر تغييراً في الكينونة. هل ثمة من يقول بوجود كائن يحل محل آخر في مراحل حياة الإنسان طفلاً ومراهقاً وراشداً؟ أليس هو الكائن نفسه الذي يتطور؟ إن ذلك ينطبق على الشعوب."(26)

والثقافة القادرة على حفظ التوازن في الشخصية القومية، هي تلك التي تكون ثقافة تغيير، أما دعوات الانخلاع من ثقافة الأمة والانتماء إلى ثقافة أو ثقافات أخرى، هذا لن يجدي الأمة سبيلاً ولن يخدم تطورها وتقدمها لأنها سترتدي في مثل هذه الحالة ثوباً لا يخصها، وستتعامل مع مفاهيم وأفكار نبتت خارج تربتها وسيكون نموها خادعاً. ويشبه مثل هذا النمو نمو الفطر الذي يبشر بنموه السريع، ولكنه سرعان ما يذوي وينتهي.

ومن خصائص ثقافة التغيير:

1 - وعي الخصوصية الثقافية القومية لأنها المعبرة عن ذات الأمة، ويتم ذلك بعيداً عن التمترس عند هوية أحادية تقوم على ثقافة تختزل عناصرها ومقوماتها في اللغة والتقاليد والتاريخ بل يكون ذلك باعتماد حالة متقدمة نبتعد بها عن العزلة التي وضعنا أنفسنا فيها بالنسبة للعالم وقد أدت إلى نمو شعور عند الآخر أو توصيف لها بحيث تصنف على أنها حالة من العداء حتى لو وصفناها أنها شكل من أشكال المقاومة أو الممانعة أو الجهاد. إن ثقافة التغيير تحتاج إلى إرادة من خلال عملية مسح شاملة لمختلف جوانب الحياة وأنماط السلوك، وتصنيف المعلومات الناتجة، وتحليلها، وفحصها باعتماد أساليب وأدوات علمية عصرية بعيداً عن التعصب للدارج وللمستقر، واعتماد آخر منجزات الحضارة الإنسانية، من إحصاء وحوسبة وإعداد قوائم معلومات وبرمجتها ليصبح العلم بالأمة، بنواحي قصورها وضعفها وعوامل القوة الكامنة فيها، محصلة هذا البحث العلمي الجاد، يقوم به أكثر من فريق عمل، وعبر مراكز بحث علمية جدية، على مستوى الأمة، أو على مستوى عدد من أقطارها. والعمل على إنشاء معاهد ومراكز للبحث المتطور في هذا الاتجاه يعد من العوامل الضرورية لإكساب المعلومات المصداقية الضرورية فتؤهلها لتكوّن معارف يمكن توظيفها في عملية تنموية شاملة. يتوازى ذلك مع حملة إعلامية واسعة ومتواصلة فتتفاعل نتائج الأولى مع الثانية. ويشترط في كل عملٍ من هذا النوع، في جزء منه أوفي كل أجزائه، أن يترافق مع جهد نقدي منفتح بعيداً عن التعصب لهذا المنحى في التحليل والبحث أو ذاك، بعيداً عن أساليب القسر والنمذجة والتنميط، في أجواء من الحرية والمسؤولية الأخلاقية. يدخل في عمليات

البحث جهد يهدف إلى رصد الثغرات في عمليات التنفيذ في أية عملية تنموية في إطار التنمية الشاملة وفي وقت حصولها. يتم ذلك كله أو أجزاء منه داخل مشروع ثقافي قومي ــ لا ينهض بأعبائه قطر بمفرده، أو نيابة عن الأمة. مشروع يبنيه القوميون العرب القادرون على تمثل حركة التاريخ، في إطار من احترام الرأي الآخر وبسلوك طريق الحوار الديمقراطي بعيداً عن الاستفراد والتسلط وفرض الآراء. فيكون على الجميع واجب الوعي بعناصر الاتفاق وتدعيمها، ودراسة عوامل الخلاف دراسة متأنية دون تشنج أو تعنت أو وصاية. وأن تجري مراجعة شاملة للأدبيات السياسية والأيديولوجية للكشف عن عورات السلوك الخاطئ، بخاصة ما تراكم منه خلال مراحل وقوع التنظيمات العربية في وهم بعض النظريات.

2 - الاتصال بالثقافات السائدة، على مستوى العالم، وفق خطة للتثاقف منظمة يقودها المثقفون لفهم عقل الآخر، بخاصة الغربي ونقده. فلامناص من التعايش مع الآخرين والاستفادة من تجاربهم، والتفاعل مع إنجازاتهم بعد تمثلها وإدماجها في شبكة المعارف والمعلومات. الانفتاح على الآخر بوعي لا يعني الذوبان في مشروعاته، وإنما العمل على تبيئة ما يناسب مشاريعنا التنموية وإعادة إنتاجه.فالحضارة جهد بشري متنامي وإنتاج متراكم عبر تاريخ الإنسان. لمثل هذا الشعور بوحدة الجهد البشري يقول الشاعر البنغالي طاغور: إن كل ما نستمتع به ونفهمه من المنتجات البشرية، يغدو على الفور خاصاً بنا أياً كان موطن نشأته. إنني أزهو بإنسانيتي حين أكون قادراً على الاعتراف بشعراء وفناني البلدان الأخرى وكأنهم أبناء بلدي. دعوني أشعر بالسرور الخاص بأن الأمجاد العظيمة للإنسان أمجادي أنا أيضاً.(27)

الاتصال مع الآخر والانفتاح عليه والاستفادة من تجاربه، يكون من خلال عدم الوقوع في أسره، والانبهار به والمماهاة معه والانخلاع من الهوية. ورسم هدف أو أهداف واضحة لعملية التواصل هذه لوعي أسس نهضته وعوامل تقدمه، لتوظف النتائج في عملية مقارنة تيسر اكتشاف الخلل في مسيرة حركة الأمة، وتنمية الثقافة العربية لتكون في تجددها قد استوعبت منجزات العصر واتجاهاته، ولتنطلق بخطىً واضحة ورصينة نحو الفعل الثقافي المتصف بـ:

ـ الالتزام بالعروبة مفهوماً متطوراً في إطار التقدم وبالتفاعل مع العصر وفاعلاً في حركة تطوره.

ـ التحصن بمناعة الخصوصية في أثناء التواصل والانفتاح التي تقي الشخصية القومية من خطر السقوط في فخ الهيمنة.

ـ وعي العلاقة بين التربية وقدرات الاتصال، كون الأولى عملية اتصالية من حيث المبدأ، كما أن نظم الاتصال ذات وظيفة تربوية، بمعنى أن وسائط الاتصال الحديثة مدارس مفتوحة. وتعزيز نظامي الاتصال والتعليم بما يخدم وحدة الشخصية القومية، ويفترض ذلك الاعتماد على دراسة العلاقة بين المدرسة والمؤسسات الإعلامية وتربية الجمهور على زيادة قدراته في مجال التثقيف الذاتي.(28)

ـ الاهتمام باللغة القومية باعتبارها بعداً هاماً من أبعاد العملية الاتصالية، وتتجلى فيها شخصية الأمة وعبقريتها، وأن الاستهتار بها، تحت أي مسمىً كان، استهتار بقيم الأمة. فليست اللغة لساناً فحسب وإنما هي هوية الأمة وخزانة تراثها وحاملة تاريخها. فلا بناء لثقافة عربية تسهم في تدعيم الشخصية القومية للأمة خارج اللغة العربية ـ والمقصود الفصيحة ـ وهي لغة ليست عاجزة عن مسايرة التطور، بها ومعها تصبح الثقافة ثقافة الأمة وليست ثقافة نخبة فقط من أبنائها، في هذا القطر أو ذاك. أثبتت اللغة قابليتها للتجدد والحياة عبر قرون عديدة، وانتشار التعليم والتطورات الناجمة عنه، تدل على أن الفصيحة ليست عسيرة على التداول بين أبناء الأمة كافة، وأن المراهنات السابقة على انتشار التعليم لن تجد لها مكاناً ذا بال. وليس سقوط دعوات اللهجات المحلية إلا البرهان على أهمية اللغة ودورها الأساس، في نهضة ثقافية عربية تدفع بعمليات التطور والتغيير إلى الأمام.

ـ الاهتمام بالثقافة التاريخية، بها تدرك أبعاد مفهوم العروبة، وتعرف طبيعته المتجددة. وبالثقافة التاريخية تفهم أسباب استمرار هذا المفهوم والمعاني والخصائص التي يتميز بها. فليست الثقافة التاريخية نوعاً من أنواع المتعة أو "الفانتازيا"، أو لغاية التغني بأمجاد مضى زمنها، وإنما هي عملية تتعلق بوعي الأحداث التاريخية من حيث كونه عاملاً هاماً من عوامل وعي الشخصية القومية ومعرفة شخصيتها وتحديد هويتها واتجاه صيرورتها. والثقافة التاريخية كأحد عناصر

الثقافة المتجددة الواعية لحركة الحياة والأشياء فلا تقع في وهم الماضي أو تحن إلى استنساخه، وإنما هي ما يمكن من امتلاك الثقة بالحاضر والمستقبل.

3 ــ المسارعة إلى سد نواقص وثغرات خطيرة في مجال استكمال أسس الانبعاث الحضاري الذي وصّفه بيان الهيئة العلمية لمركز الإنماء القومي عند تأسيسه، على أنه طريق تحديد علمي واضح للمضامين الثقافية والتربوية ومختلف المشكلات النظرية والعلمية المتفرعة عنهما من جهة، ليصار من جهة أخرى إلى إصلاح آليات السلوك الأخلاقي والاجتماعي وتطوير أنماط هذه الآليات ومؤسسات الاعتقاد والعمل وخلايا الحيوية الجماعية في الأسرة والنادي والمزرعة والحي والمدرسة والمكتبة والمعمل من جهة أخرى. (29)

ثقافة التغيير وهي تتعدى النخب المثقفة إلى الساحة الواسعة للجماهير لا تعني صياغة نظريات اجتماعية أو سياسية، بقدر ما يكون هدفها مخاطبة العقول بالانطلاق من مفاهيم ثقافية تسهم في تنميتها وتصحيح مساراتها. ومما ييسر ذلك اتصافها بالمرونة بحيث يكون لها فسحة كافية من الحرية تسمح بالحوار وبعمليات الاكتشاف وتنمية الإبداع والفكر المبدع. ولا يتكون ذلك بمجابهة معتقدات الناس بصلافة تتجاهل قوة الأفكار والمعتقدات الراسخة والتقاليد وإنما باتباع أسلوب الاقتراب منها بالتدريج وباستخدام وسائل وأساليب مناسبة للإقناع.

4 - الخروج من أزمة الثقافة العربية المعاصرة يتطلب تأكيداً على وحدة الشخصية القومية للأمة العربية. وأن يكون مفهوم العروبة في محور أي بحث أو نشاط قومي. وأن تتولى مؤسسات مسؤولة إرساء تقاليد ثقافية لتنمية الوعي بأخطار الاختراق الثقافي المنظم والذي تجتهد قوى معادية من الخارج بالسعي الحثيث لإحداثه وانتهاك خصوصيات الأمة والتشكيك بوجودها، واستهداف شروط نهضتها.

5 - دمج العلم دمجاً موضوعياً في الثقافة القادرة على التغيير، لأنه مهما اصطنع الاقتباس لنفسه من وسائل لن يتحقق ذاك الدمج دون وجود هياكل علمية وإنتاجية راسخة لدى المقتبس تتيح له الفرصة الحقيقية للاستفادة منه. مع الأخذ بعين الاعتبار أن التكنولوجية قبل أن تكون سلعة للتجارة الدولية هي أولاً معرفة

وتنظيم . والمعرفة والكفاءة الإدارية وطاقة الإبداع تشكل معاً ركائز كل تطور تكنولوجي. فليست الآلة بحد ذاتها هي التي تسمح بتراكم الإنتاج وبالتالي رفعه، وإنما هي تنظيم أفضل لشروط الإنتاج والإدخال الناجح لطرائق تقنية تزيد في أرباح الإنتاجية الناجمة عن التطور في التنظيم.(30)

وليكن خيار العلم والتصنيع مبنياً على قاعدة من الاعتماد على الذات واستنهاض قواها وقدراتها .

6 ـ التكيف الإبداعي هو اختيار لابد منه لثقافة قادرة على التكيف مع عصر التفجر المعرفي فالتكيف الإبداعي هو خيار الثقافة الوحيد والممكن ليتمكن الإنسان من التكيف مع التغيير المتعدد الجوانب. يستمد تعلم الإبداع مشروعيته، وأهمية دوره في الثقافة من القدرة على الفعل الحضاري وتجاوز حالة التبعية المتمثلة بالتكرار واللهاث وراء منجزات الآخرين والانبهار بكل عناصر حضارتهم، كل ذلك ليس ممكناً بدون ولادة عصر الإبداع العربي. وامتلاك قدرات الإبداع والاهتمام من مؤسسات التثقيف والتعليم بها وبنموها يأخذ بيد المجتمع والأمة لتجاوز مستنقع الدوران في المكان. فلا سبيل في عالم اليوم إلى تخطي الحواجز والموانع وأسوار التخلف بلا تنمية قدرات الإبداع عند الأفراد والمجتمع، يعني هذا النهوض بالعلوم السلوكية اعتماداً على دراسات تنطلق من رؤية شاملة للبنى الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، لا الاعتماد على معلومات جاهزة معلبة، هي في واقع الحال نتاج استقراء بيئات مختلفة عن البيئة العربية. ويقتضي ذلك جهوداً جماعية متعاظمة تعمل على إعادة إنتاج هذه المقاربات ونقدها وتجريبها إن كان ممكناً. ولا يعني هذا البداية من الصفر، فمواصلة الطريق تحتاج إلى معلومات تدخل في نسيج معارفنا، فإذا ما التقى النقد والمعرفة قامت سلطة العلم كأعلى السلطات.(31)

لكن المعرفة، وإن كانت في أساس كل توجه ليست الضالة في مداواة عللنا وأمراضنا، وإن كانت شرطاً ضرورياً لدفع المشروع الثقافي العربي إلى أمام، إلا أنها ليست بالشرط الكافي، فلامناص من الفعل الإبداعي القائم على حفز القدرات الإبداعية في الفرد والجماعة، والطريق إلى ذلك هو الوعي بشخصيتنا القومية

وتوافر الإرادة اللازمة للحفاظ على هويتها. (الشخص المقلد والأمة المقلدة إذ ينسخان ذاتهما عن الآخرين نسخاً فإنهما يمسخان شخصيتهما مسخاً).

تدعونا حالة التخلف إلى أن يكون تعلم الإبداع ورعاية المبدعين من صلب مناهجنا التربوية والثقافية لمغالبة حمى المجتمع الاستهلاكي. وقد علمنا التاريخ ـ يقول عبد الله عبد الدائم ـ ألا سبيل إلى مغالبة ندرة الموارد وشحها إلا عن طريق العقل المبدع المبتكر، عن طريق المادة الرمادية، عن طريق تلك القوة الفكرية التي تقوى على استبدال بالمورد القديم مورداً جديداً وأن تحل طاقة بديلة مكان طاقة زائلة ... العقل المبدع المبتكر هو سبيل التجديد ـ في التربية والثقافة ـ وسبيل التغلب على الأزمات ومغالبة التخلف في التربية والثقافة من نقص الإمكانات والموارد شريطة العناية بتكوين ذلك العقل ... أجيال تنتظر، وأفواه جائعة تفغر فاها، وأزمات عاصفة تلوح في الأفق، ومن رؤاها نستمد العزم على أن يكون التجديد في التربية والثقافة جزءاً من رسالتنا القومية والإنسانية. (32)

7 ـ ثقافة التغيير وعصرنة الموروث القومي:

يعني التراث أساليب العيش الخاصة بما فيها من عادات وتقاليد وقيم أخلاقية أو دينية وخرافات وفنون شعبية، وما سجله الأقدمون من قضايا فكرية أو علمية أو اجتماعية. ليس التراث محصوراً في فترة أو مرحلة محددة، إنه مخزون من الذكريات والصور الخارجية في مجتمع من المجتمعات الإنسانية. وليس مستقلاً عن جوانب الحياة المعرفية والاجتماعية للجماعة، ولكنه لا يحتوي عليها. اختلف عندنا المنظرون والمفكرون، نحن العرب، في معنى التراث. منهم من رآه على أساس من نظرة دينية خاصة، باعتبار أن الدين محور الحضارة ومركزها بالنسبة للمسلمين، وتتبنى وجهة النظر هذه كنقطة بداية على أنها اليقين المطلق والمقدس. وهي نظرة تلحق أذىً بالتراث لأنها تحصره في حيز ضيق، فتنفي ما سبق الإسلام وتخرجه من دائرة البحث في التراث. وفي نطاق آخر تستخدم بعض النخب المثقفة مفاهيم التراث والنهضة والقومية والماركسية وما شابهها على أنها موضوعات قارة مستقرة ونهائية، متناسين أن أي مفهوم إذا أخذ به كما هو، دون النظر إليه بعين النقد

يصبح جامداً لا حركة تجدده، سوى الوعي بطبيعة المفاهيم كون النمو من طبيعتها، وأن فهم خاصيتها هذه هو الطريق إلى الاستقلال الفكري.

1 - تعاني الثقافة العربية من مسألة تتمثل بحالة من العجز عن إحداث حركة في مجتمع راكد سكوني، تتلقى رياح التغيير من الخارج فلا تجد بداً من الانسياق في تيارها وقد تعاندها، ولكنها في الحالين لا تقف على أرضية فكرية واضحة تتكيف مع هذه الحركة... وكثيراً ما نجد المثقفين يفكرون خارج اتجاه حركة التغيير. عاش المجتمع قروناً خارج الحركة تأخذه الرياح حيث تثور، لا حيث يريد. فكأن العقل العربي إبان ذلك، وهو لا يزال ـ كما يقول ياسين الحافظ ـ برميل لا قعر له، لا يجمع ولا يراكم. مع كل صباح يبدأ تجربة جديدة وينسى تجربة البارحة... ولا يفكر باحتمالات الغد.(33) اعتقدت النخب المثقفة ردحاً من الزمن عبر أحزابها وتياراتها وتجمعاتها وما زالت أن دورها التبشير والدعوة إلى قلب أنظمة الحكم في أقطارها سبيلاً إلى تقدمها وإلى سير الأمور في الاتجاه السليم. وكان ذلك يتم باستمرار خارج حركة نقدية واعية. لذلك كثرت دعوات بعض المحللين والمفكرين العرب إلى تحديث وعقلنة وكوننة وعي الانتليجنسيا العربية على أن ذلك هو المقدمة التي لابد منها لتعديل ميزان القوى لصالح الأمة... ورأوا أن تعميق وتجذير النقد ودفعه من نقد الأنظمة إلى نقد المجتمع. وبالتالي بكون المطلوب قلب المجتمع لا قلب الحكم فقط. (34)

2 - لا يبدأ النقد من الواقع الراهن، دون أن يتناول التراث، فلا مندوحة من نقد الموروث.ففكرة التحديث في أوربة لم تكن ممكنة دون النقد الذي أخضع الأوربيون له معتقداتهم وماضيهم. لكن النقد لا يعني نسف التراث والماضي من جذوره، والقطيعة معه. فالتطور الحقيقي ليس بالممكن حدوثه إلا عندما يتغير الناس أنفسهم. وهذا لا يعد تغيراً بالمعنى القاموسي، إنه تطور وتقدم. فعلى الرغم من أن جدران المدينة القديمة ــ كما يقول أحد الكتاب ـ والقصور الإمبراطورية والتقاليد الثقافية القديمة قد ظلت، فإنها اتخذت وظيفة جديدة وروحاً جديدة وحياة جديدة لأن الناس يتغيرون . (35)

3 - الهدف المنشود للمشروع الثقافي التغييري من العودة إلى التراث ليس من أجل الاعتماد عليه في عمل مستقبلي، بقدر ما هو ضروري لتدعيم الحاضر ولوعي الهوية القومية أيضاً. قد يرى بعض المهتمين أن المشكلة بالنسبة للتراث والموقف منه تتصل بموضوعات لها حساسياتها في تكوين المجتمع العربي نفسه، من حيث تركيبته الدينية، أو من حيث تركيبته القومية الأثنية. إن المشكلة لا تكمن فيما ذكرنا، بقدر ما تسببها الطرق التي يتعامل بها الناس مع هذه الموضوعات.

4 - قراءة التاريخ والتراث ـ مع الأسف ـ لا تتم وفق منطق الوحدة القومية والشعور بالوجود القومي كوجود متعال عن العصبيات. يقول محمد عابد الجابري:

" التاريخ الثقافي العربي السائد الآن في مجمله مجرد تكرار واجترار وإعادة إنتاج، بشكل رديء، للتاريخ الذي كتبه أجدادنا تحت ضغط صراعات العصور. وهو تاريخ فرق وطبقات وتاريخ مقالات... وهو تاريخ علوم وفنون من المعرفة منفصلة عن بعضها... الأمر الذي يجعل الوعي العام يقوم على التراكم وليس على التعاقب، على الفوضى وليس على النظام"..(36)

الموقف النقدي من التراث ينطلق من مبدأ نهضوي يستند إلى مبدأ يقوم على أن النهضة لا تبدأ من فراغ فلا بد وأن تنتظم في تراث، ولا يكون انتظام الشعوب في تراث غيرها وإنما في تراثها نفسه. هذا لا يعطي الضوء الأخضر لكل ما في التراث، فليس كل ما في التراث صائباً وقابلاً للحياة في بيئة العصر الحاضر. العملية النقدية للتراث تبدأ من عملية مراجعة شاملة لاكتشاف ما في التراث من أدلة على نزوع الأمة نحو الوحدة. الهوية القومية لا تصنعها القرارات الفوقية والرغبات الشخصية، بقدر ما يرتبط ذلك بالموروث الذي يؤكدها. يدرك الناس في أركان العالم أهمية الماضي في توازن الحاضر وضمان المستقبل ويحرص المهتمون بقضايا شعوبهم ومصيرها على الاهتمام بالتاريخ ووعيه وتنمية الإحساس به، لما في ذلك من الحرص على وحدة الشخصية القومية. فقد عدّ الرئيس الفرنسي الأسبق (ميتران) أن نقائض التاريخ تقود إلى فقدان الذاكرة الجماعية لدى الأجيال الجديدة. في التراث تتحصن الأمة من الذوبان في الآخر، وبوعيها وقدرتها على الإبداع

تستطيع أن تستفيد من تجارب الآخرين وتتمكن من تجديد هويتها، فيصبح حاضرها استمراراً طبيعياً لماضيها، وأساساً لانطلاقتها. فالتراث جزء من تاريخ الأمة وحين تفقد الأمة ارتباطها بتراثها ستجد نفسها وقد أضاعت شخصيتها مع تاريخها، وصارت لا تجارب لها تستفيد منها ولا خبرات تبني عليها خبرات جديدة.

5 - يتطلب الموقف النقدي من التراث التمسك بأفضل ما في الماضي من أصول تدل على العراقة، وما يصلح للتكيف مع جديد العصر والتفاعل معه وإعادة إنتاجه. وهو موقف يبتعد عن التكرار والقبول بالحلول التقليدية ويتجه نحو الإبداع بالاستناد إلى خبرات الماضي وتجارب الآخرين. وفي إطلالتنا على منجزات العصر لا نؤخذ بقوة ومستوى ما وصل إليه الآخرون على غاية لا تدرك من قبلنا، فليس عصياً على الأمة التي تتنطع لتطوير نفسها أن تجد أسلوبها إلى ذلك دون الوقوع في عملية تقليد سطحية فتجد نفسها وقد استسهلت الركون إلى الإقامة حيث يقف المستكينون في موقع التقليد والاستهلاك. تتجلى عبقرية الأمة في جدلية الموروث والوافد في تمثل الوافد وإضفاء خصائصها الذاتية عليه وإدخاله في جملة معارفها وخبراتها. ومن جهة ثانية يطرح على الأمة سؤال لابد من الإجابة عنه بوضوح ، كيف نفيد من التراث دون أن يكون قيداً يمنعنا من رؤية التغيرات، ويسعفنا على الانخراط في العصر والإسهام في بناء حضارة إنسانية تحقق إنسانية الإنسان وتتقدم باستمرار؟ التعاطي مع التراث من موقع النظرة النقدية يعني تطويعه بحيث يغدو قابلاً للفهم من الناس. ليست العودة إليه تقرباً منه للاستفياء في ظلاله والاستراحة في ربوعه للتغني بأمجاده، ولا باختيار موقع منه له ميزة من غيره. العودة إلى التراث ليست للانغماس فيه والانسحاب من العصر، إنها لحظة يكون التراث جسراً تعبره ثقافة التغيير إلى عصر له خصائصه وأدواته واتجاهاته الخاصة به. فلا توقف عند كنوز التراث وهي وفيرة، وإنما متابعة لمسيرة الإبداع والبناء فوق آخر مدماك منه، بعد تخير ما هو قابل للحياة فيه وللنمو. نعود إلى التراث لفضائل فيه يحددها الدرس المنفتح على المستقبل، لأسباب قال عنها الجاحظ" ولولا ما أودعت لنا الأوائل في كتبها، وخلدت من عجيب حكمتها، ودونت من أنواع سيرها حتى شاهدنا ما غاب عنا وفتحنا بها كل مستغلق كان علينا، فجمعنا إلى قليلنا كثيرهم، وأدركنا ما لم ندركه إلا بهم، لقد خسّ حظنا من الحكمة،

وضعف سبيلنا إلى المعرفة." لكن هذا يجب ألا يجعلنا نقع في الاستهواء ونرضى بما وقعت عليه أيدينا فيه، وكفى الله المؤمنين شر القتال. ليس التراث ـ كما قال حسين مروة في إحدى مقالاته ـ عملية اصطناع وافتعال اعتباطية، وليس هو كذلك هدفاً بذاته، وإنما هو في آخر المطاف إعادة اعتبار لما هو حي بالفعل من عناصره، لكي ندل على مكانه الواقعي والحقيقي من مسيرة التطور، لكي نرفع عنه الاضطهاد التاريخي الذي أصابه في بعض الظروف حيث الإرهاب الفكري الذي مارسته بعض الجهات في التاريخ العربي والإسلامي ويقتضي الأمر أن لا تتقيد عملية التحقيق بلغة زمن المادة التراثية، وتفسره بلغة زمانه دون أن تقربه من لغة الناس في الحاضر ليمكن إدخاله في حياتنا الفكرية كي يصبح جزءاً منه.

8 ـ ثقافة التغيير والخصوصية القومية:

ترتبط قابلية الثقافات للتمايز والاستقلال ارتباطاً وثيقاً بتنوع سبل الحياة تنوعاً يصعب حصره. وأن ثمة جوهراً مشتركاً بين تعلم مجتمع من المجتمعات كيف يعمل، وبين معرفة الكيفية التي يغير فيها طريقة عمله. تضرب روث بنديكيت في كتابها "أنماط الثقافة" مثلاً على تنوع الثقافات واستمراره بما قاله لها ذلك الهندي عن أساليب الهنود الحمر في الحياة وتمايزها من الآخرين، "في البدء أعطى الرب لكل شعب كأساً من الفخار، وشربوا جميعاً جرعة الحياة كل من كأسه، إذ غمسوا جميعهم كؤوسهم في الماء. لكن، الكؤوس لم تكن سواء. وها قد تحطم كأسنا الآن، انقضى زمانه ولم يعد له وجود".

في العالم ثقافات، وليس ثقافة واحدة. فكما أنه يستحيل وجود شخصين متشابهين تماماً، فلا يوجد شعبين تنطبق خصائصهما الثقافية تماماً. وأن القول بإمكانية انطباع أمم الكون في ثقافة واحدة نوع من الهراء ومخالفة لمنطق الحياة والوجود. تنمو ثقافة كل أمة، أو كل شعب وتتجدد أو أنها تنحط وتزول تبعاً لإرادة أصحابها ووعيهم. من الثقافات ما يميل إلى الانغلاق والانكماش، ومنها ما يسعى إلى الانتشار والتوسع، ومنها ما ينعزل حيناً وينتشر حيناً آخر. أن تحافظ بعض الأمم على خصوصياتها الثقافية هو أحد أهم سبل مقاومة التذويب الثقافي،

واعتماد أساليب من المثاقفة والتفاعل بين الثقافات انطلاقاً من أولوية الأمة ووجودها على أية أولوية أخرى.

في كتابه اللا مذكرات قال أندريه مالرو : في مجال التاريخ فإن الواقع الرئيس الأول الذي ساد السنوات العشرين الأخيرة ـ يعني بذلك منتصف القرن العشرين ـ هو في نظري أولية الأمة، وهو شيء يختلف تماماً عن الوطنية. وهو لا ينبني على التفوق ولكن على الخواص المميزة. وحين التقى مع ديغول لأول مرة عام 1943 بادره الأخير بقوله الماضي أولاً؟ أجابه مثل الكثيرين غيري اخترت فرنسا. إن اختيار الأمة يعني المحافظة على خصوصيتها. وأن تعيش الأمة خصوصيتها الثقافية يكون عاملاً هاماً لمواجهة أخطار النمذجة والاختراق، على أن يتم ذلك بعيداً عن التعصب والعصاب. في الوقت نفسه حيث ينتفي إدماج العالم في ثقافة واحدة فإن التخويف و الترويج لصدام الثقافات أو حربها على أنه أمر لا مندوحة منه، ليس صحيحاً كما يقول ادوارد سعيد مستشهداً بما جاء على لسان إيميه سيزار الشاعر الزنجي :

"إن عمل الإنسان مازال في بدايته /

فما زال عليه أن يقهر كل هذا /

العنف الكامن في طيات شهواته/

فليس بمقدور جنس واحد احتكار الجمال/

أوالذكاء أوالقوة وهناك/

متسع للجميع في ملتقى النصر".(38)

يتفق العمل على الحفاظ على هوية الأمة وخصوصيتها الثقافية مع دافع من الدوافع التي تحرك السلوك البشري للحفاظ على توازن الشخصية وتكيفها المعروف بدافع الانتماء. ففي الإنسان الفرد والجماعة ما يشعره باستمرار بالحاجة إلى الانتماء إلى كل منظم، يشعره بوجوده وبجذوره فيه، وأن يعرف أن له مكاناً أكيداً في هذا الوجود، قد يشعر بالجوع وبالحرمان، لكنه لن يبتلى بأسوأ الأوضاع أي بالعزلة الكلية والشك. لكن المحافظة على الخصوصية الثقافية محفوفة بالمخاطر. فالمفارقات في الإعلام والاتصال تؤثر سلباً في حرية المعلومات وتدفقها، وفي الرؤية الموضوعية

الدقيقة للحقائق والمشكلات، وفي توظيف المعلومات لخدمة أغراض التنمية وتعزيز الذاتية الثقافية للشعوب والأمم الفقيرة. هذا النظام الدولي للإعلام والاتصالات تحكمه اعتبارات دولية سياسية واقتصادية واجتماعية وحضارية تجعله وجهاً من وجوه النظام الاقتصادي الدولي القائم.(38)

ومن المخاطر التي تهدد الخصوصية الثقافية ما يرى في سلوك بات يشكل مصدر قلق لمعظم شعوب العالم، يتمثل في سرعة انتشار أنماط سلوكية تنتشر على مساحة الكرة الأرضية، ليس في مجال المعلومات فحسب، وإنما في أنماط حياتية أخرى، منها تلك التي تتعلق بأنماط الغذاء وما له علاقة بعادات مستجدة، على سبيل المثال الكوكا كولا ، الهمبرغر، الجينز، الكاو بوي، وميكي ماوس و... وما بات يتصدر الأماكن العامة من الإعلان في واجهات المطاعم ومحال بيع الألبسة وغيرها. هذه المظاهر باتت مصدر تخوف لا للبلدان الفقيرة فحسب، وإنما لبعض حلفاء أميركا من الأوربيين أيضاً. بعد افتتاح مدينة وولت ديزني في فرنسا، انقسم الناس بين مؤيدين ومعارضين، فنشرت مجلة لابوان الفرنسية مقالاً، بعنوان، كيف نقاوم أميركا؟ جاء فيه:

"بالنبيذ والشره والموضة تغزو أوربة وأميركا؟ وبخطى محسوبة أميركا الأقمار الصناعية والاتصالات تغرق أوربة... وحين اجتمع وزراء الثقافة في الدول الأوربية في دلف، والكونسورتوار الغنائي الذي نقل بالأقمار الصناعية من هناك كانت نجمته هي نجمة الروك أند رول بروس سبرغستين... وعلى عشب ملعب ريختر كان ثمة 30 ألف شاب بالجينز والقمصان الموشحة بأسماء جامعاتهم. وعند أقدامهم آلاف علب الكوكا الفارغة، وعلى مسرحية فرقة ي.ستريت ترطن بالإنكليزية شعاراً يؤذي كل قارتنا أوله ولد في أميركا". (39)

وها إن عالم اليوم وخاصة في موضوعات الثقافة واقع تحت السيطرة، فلا تغرب الشمس عن امبراطورية الكوكا كولا أو أم تي في، كما يقول عالم الاقتصاد الهندي أمارتيا صن. (40) لم تستطع التحذيرات التي حلت في أماكن بارزة في الصحافة الأوربية عامة، والفرنسية خاصة أن تعيد عقارب الساعة إلى الوراء.

ثقافة التغيير المطلوبة ليست استهانة بالموروث بقدر ما هي بناء عليه بعد تنقيته وفحصه للتثبت مما هو قابل فيه للتطور، ولصلاحيته للتوظيف في عملية التقدم "لن يكون باستطاعتك أن ترى التغير الحقيقي إلا عندما يتغير الناس أنفسهم. وليس هذا تغييراً بل هو تطور وتقدم، فعلى الرغم من أن جدران المدينة القديمة والقصور الإمبراطورية والتقاليد الثقافية القديمة قد ظلت، فإنها اتخذت وظيفة جديدة وروحاً جديدة، وحياة جديدة، لأن الناس يتغيرون". (41) التراث يحفظ للأمة شخصيتها ويسمح بتفجير طاقات أبنائها ومؤسساتها لتأمين شروط نهضتها. ويكون ذلك ممكناً وغير متناقض مع ما ذكرنا، على أن لا تتخلى الثقافة العربية عن مبدأين أساسين هما:

1 - الفكرة القومية، باعتبارها محور الثقافة العربية. فلا وجود لعالم بلا قوميات أو بلا أمم. فلا يمكن لأي تلفيق ميتافيزيقي، كما يقول أراغون:

"لن يحملنا على قبول التنازل عن هذا الواقع الحي الذي لا يتعارض مع مبدأ الحفاظ على الخصوصية الثقافية للأمة مع عملية تكيف هذه الثقافة مع المستجدات على صعيد العالم، سيما وقد صارت السمة العامة للعصر أنه عصر التفجر العلمي والتكنولوجي. فالتغيرات التي تحدث في جميع مسارات الحياة في الكون تقتضي تجديداً في كثير من أنماط السلوك والعيش لتحقيق التوازن الذي يحف في الأمة... لا يمكن أن يقوم أي تفاهم علمي على غير افتراض وجود الأمم واحترامها. (42)

2 - اللغة العربية والتاريخ العربي مقومان من مقومات ثقافة التغيير العربية، باعتبار الوعي بأهميتهما من أهم شروط الوعي بخصوصية الثقافة العربية، بعيداً عن أي تعصب قومي، أو عداء أو اتهام لثقافات الأمم الأخرى. واختلاف الثقافات مصدر إثراء للإنسانية. فأي ثقافة تطمح للنمو وتسعى للعيش في هذا العصر لا يمكن لها أن تتنكر لثقافات غيرها من الأمم، أو ترفض أحدها. ويعلمنا التاريخ أن الأمة العربية دللت في الماضي على مرونتها في التعامل مع ثقافة الآخر وتمثلها لها دون أن تتخلى عن خصوصيتها الثقافية.

في عملية التأكيد على الخصوصية الثقافية، لا يكون التقيد بالاختلاف والمحافظة عليه هو النقطة الحاسمة واعتبار التشابهات نتيجة مصادفة ليس إلا. فالأهمية الفريدة لثقافة من الثقافات لا تعني انعدام الحاجة إلى فهم الثقافات

الأخرى ونفي تأثيراتها. إن التمسك بالخصوصية يجب ألا يفقد الأمة القدرة على الاستفادة من ثقافة الآخر. يقتضي الأمر أن تجدد الثقافة في أساليبها بإدخال أنماط سلوكية تتناسب مع التغيرات الجارية في العالم، في مجالات الحياة المختلفة، في الأسرة والمدرسة وفي أساليب المعاملات الاقتصادية وفي الشارع، من خلال وضع تصور يؤكد على التفاعل مع التغيرات والمستجدات العالمية بعيداً عن الانكماش والتقوقع، وفي اتجاه يسمح بتطور ثقافة المجتمع دون التخلي عن الهوية القومية.

يقتضي ذلك :

1 - تعلم النقد والاهتمام بالفكر النقدي في مختلف مؤسسات المجتمع، وعدم الركون للإطلاقية في الأحكام. ورفع قدرة المجتمع على الإنتاج. فالعلم قد يكتسب والمعرفة التكنولوجية يمكن حيازتها، لكن ضعف القدرة على الإنتاج قد يحول دون الاستفادة من هذا العلم ومن هذه المعرفة، فبذرة التخلف ـ كما يقول جورج قرم ـ ذات وظيفة رهيبة، تحول دون أن يكون لكل البريق الذي يصاحب الإنجازات التحديثية أية قدرة على استنبات تكنولوجية حديثة. (43)

2 - الاهتمام بالتعليم العالي والبحث العلمي، وربطهما بالمؤسسات الاقتصاية والاجتماعية، واعتبارهما ركيزة رصينة للبحوث المتطورة، بحيث يكونا مراكز للتعلم وإنتاج المعارف وتنشيط القدرات الإبداعية.

3 - إقامة نظام تربوي يهتم بتنمية القدرات الإبداعية وتنشيط التفكير. فلا سبيل إلى تخطي حواجز وموانع وسدود التخلف والتبعية إلا بتنمية القدرات الإبداعية على المستويين الفردي والاجتماعي. ويتطلب هذا النهوض بالعلوم السلوكية اعتماداً على دراسات معمقة تنطلق من رؤية شاملة للبنى الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، لا الأخذ بمقاربات هذه العلوم واتجاهاتها جاهزة، لأنها ليست نتاج بيئتنا، وإنما هي نتاج استقراءات ودراسات بيئات مختلفة ومجتمعات أخرى في ظروف لها طبيعتها وخصائصها وشروطها. لا يعني هذا الابتداء من الصفر، فمواصلة الطريق تحتاج حقيقة إلى معارف أنتجها الغير، لكن ينبغي الأخذ بها أو ببعضها بإخضاعها إلى المزيد من النقد، " للوصول إلى نماذجنا الخاصة فإذا ما التقى النقد والمعرفة قامت سلطة العلم كأعلى السلطات". (44)

4 - رفع مستوى إنتاجية الفرد والمجتمع بتنمية ثقافة الإنتاج مقابل ثقافة الاستهلاك. ويتطلب الأمر ثقافة تتبنى الحفاظ على الموارد، والحد من استنزافها. وتأسيس ثقافة بيئية تهدف إلى الحفاظ على البيئة لوقف الفتك بها نتيجة أطماع وجهل بأهمية وجود بيئة معافاة قادرة على تجديد نفسها، وتوجيه فعاليات الفرد والمجتمع ليكون استخدام المواد الأولية والطاقة عند إنتاج السلع وتوفير الخدمات العامة في حدود أقل كمية ممكنة لتحقيق أكبر فائدة بأقل قدر من الموارد.

5 - الاهتمام بوضع المرأة في المجتمع ، وإعادة النظر بدورها في مختلف المجالات ، بخاصة بعد أن أخذت تخرج إلى العمل خارج المنزل، وما يترتب عليه من فائدة تعليمية لها وخبرات جديدة. ويرتب هذا معايشتها للعالم خارج المنزل لتكون فعاليتها أقوى تأثيراً. ولهذا أثره الذي يجب القبول به المتمثل بتحصيلها دخلاً مستقلاً يفترض أن يدعم وضعها الاجتماعي في الأسرة وفي المجتمع. وفي هذا ما فيه من تأثير على تربية الأبناء والوفاء بحاجات الأسرة، وفي تحسين مستواها الصحي والمعيشي.

ـ ثقافة التغيير القادرة على إنجاز المشروع القومي العربي حاجة إنسانية حضارية ،في المقام الأول، في عصر التفجر المعرفي والتكنولوجية العالية التطور. وتتطلب جهداً عربياً متقدماً للتكيف مع العصر والإسهام في الحضارة الإنسانية لمغالبة أساليب الهيمنة والتسلط، ولمناضلة النزعة الاستهلاكية وأخلاقياتها لتجاوز مرحلة التقليد والاتباع والتخلص من حالة التخلف. يقتضي الأمر النظر إلى تعلم الإبداع وتكوين الشخصية المنتجة على أنهما أهم عناصر النجاح والانطلاق نحو بناء ثقافة التغيير، على أن يتم ذلك من خلال عملية تنموية شاملة هدفها ومحورها الأساس الإنسان العربي، متوجهة إليه ومؤكدة على وحدة الشخصية القومية للأمة العربية، قادرة على إيقاظ قوى الإبداع في مجالات العمل العربي كافة. والأخذ بالحسبان أن إنجاز المشروع الحضاري العربي لا يكون ممكناً وفعالاً بالعمل التنموي القطري مهما حشد له من إمكانات، وإنما من خلال عمليات توحيدية مستمرة تحميه من مخاطر الاستفراد به وتزييفه. وأن أي جهد قطري لن يكون إلا

سباحة بعكس التيار، وخارج الحركة العامة للتاريخ "حركة التجمعات البشرية الكبيرة". ثقافة التغيير تكون من خلال استراتيجية عربية موحدة تصنعها الجماهير بإرادتها وبوساطة تنظيماتها الذاتية، لا بعرضها عليها من أية سلطة مهما ادعت بأنها تملك من قدرات توهم نفسها بامتلاكها وتطلب من الآخرين التسلح بها. هذا المشروع التغييري بحاجة اليوم أكثر من أية مرحلة أخرى إلى النمو في أجواء من الحرية والديمقراطية، وإلى عمل جماهيري جاد تصنعه الأمة عبر الممارسات الدائبة لرفع كل وصاية عليها، بإتاحة فرص من الحرية والعمل الجاد المحصن بالرقابة الديمقراطية. وهذه الاستراتيجية ينبغي لها أن تقوم على الإبداع وتنمية الفعل المبدع في عملية النهوض القومي، مع ما يترتب على ذلك من رعاية واهتمام يستلزمان تطوير وسائل البحث التربوي والاستفادة من المواهب ورعاية المبدعين بتوفير أجواء تضمن حرية البحث وتدعمه.

9 ـ الهوامش والاستشهادات

1 ـ عبدالطيف، كمال: العالم بعد 11 أيلول ـ ص30 ـ مجلة الاجتهاد ـ ع54 ـ عام2002 2 ـ كولينز، جوزيف ج: الثقافة العسكرية الأمريكية ـ ص29 ـ ترجمة بدر الرفاعي ـ الثقافة العالمية ـ ع99 ـ 3 / 2000

3 ـ كريذروس، مايكل: لماذا ينفرد الإنسان بالثقافة ـ ص58,59 ـ عالم المعرفة ـ 229 ـ الكويت 1998

4 ـ علي، نبيل: الثقافة العربية وعصر المعلومات ـ عالم المعرفة ع 276 – الكويت2001

5 ـ الموسوعة العالمية الفرنسية: سوسيولوجية الثقافة ـ ص96 الفكر العربي المعاصر ـ ع1

6 ـ راتنر، كارل: ثلاثة تيارات في علم النفس الثقافي ـ ص157 ـ ترجمةكمال شاهين ـ الثقافة العالمية ـ ع101 ـ 2007/7

7 ـ كاوتري، هوين: الذاتية الثقافية في التنمية ـ ص23 ـ ترجمة انطون خوري ـ التربية الجديدة ـ ع25 ـ 1982

8 ـ السابق: ص24

9 و10 ـ كريذروس، مايكل: م س ـ ص7

❖ سلام وستفاليا: وستفاليا إحدى مقاطعات بروسية الغربية سميت المعاهدة التي وقعت في 1648/10/24 باسمها، وذلك في نهاية حرب الثلاثين بين فرنسا وهولندة من جهة، وإسبانيا والامبراطورية الرومانية المقدسة من جهة أخرى. وأعادت المعاهدة صوغ العلاقات السياسية والدينية في أوربة ووضعت المعايير الأولى للدولة الحديثة. وبموجب بنودها منحت السيادة والاستقلال الكاملين لكل دول الإمبراطورية الرومانية المقدسة، وجردت الإمبراطورية الرومانية من معظم سلطاتها تقريباً. ❖

11 ــ عبد الملك، أنور: ملاحظات حول مفهوم الخصوصية ــ ص65 ــ الكرمل ـ ع 53

12 ــ مور، ريبيكا: العولمة ومستقبل السياسة الأمريكية إزاء حقوق الإنسان ـ ص53 ـ ترجمة أماني درويش ـ الثقافة العالمية ـ ع99 ـ 2003/3

13 ـ السابق: ص54

14 ــ كليفتون أندرسون: الهندسة الوراثية ـ ص100 ـ ترجمة عبد الرحيم محمد ـ الثقافة العالمية ع103 ـ 10/ 2000

15 ـ العالم، محمود أمين: ملاحظات حول الثقافة العربية ـ ص8 ـ الوحدة ع 101/ 102

16 ــ النقيب، خلدون: المشكل التربوي والثورة الصامتة ــ ص76 ــ المستقبل العربي ـ ع174

17 ــ غليون، برهان: نحو سياسة ثقافية جديدة ـ ص22 ـ الفكر العربي المعاصر ـ ع1

18 ــ الجابري، محمد عابد: المسألة الثقافية ـ ص30 ـ مركز دراسات الوحدة العربية –بيروت ـ 1994

19 ــ الجابري، محمد عابد: الثقافة العربية اليوم ومسألة الاستقلال الثقافي ـ ص12 ـ المستقبل العربي ع 174

20 ــ زكريا، فؤاد: الفلسفة والدين في المجتمع العربي المعاصر ــ ص94 ــ بحوث المؤتمر الفلسفي العربي الأول ـ مركز دراسات الوحدة العربية ـ بيروت ـ 1985

21 ــ بلقزيز، عبد الإله: مقدمات لتحليل عوامل إخفاق المشروع النهضوي العربي ـ ص30 ـ الطريق ع 1 / 57

22 ــ مركز الإنماء القومي: استراتيجية التنمية الحضارية ـ ص10 ـ الفكر العربي المعاصر ع1

23 ــ قرني، عزت: العدالة والحرية في فجر النهضة العربية ـ ص7 ـ عالم

المعرفة ع30 ـ الكويت 1980

24 ـ ضاهر، عادل: دور الفلسفة في المجتمع العربي ـ بحوث المؤتمر الفلسفي العربي الأول ـ مركز دراسات الوحدة العربية ـ بيروت1985

25 ـ جعيط، هشام: الثقافة والسياسة في العالم العربي ـ دورية جدل الإسلام والسياسة ـ دار غاليمار ـ باريس ـ 1991

26 ـ عرودكي، بدر الدين: مقابلة مع جاك بيرك ـ ص281 ـ الفكر العربي ع2

27 ـ صن، أمارتيا: التنمية حرية ـ ص278 ـ ترجمة شوقي جلال ـ عالم المعرفة 303 ـ الكويت2004

28 ـ المصمودي، مصطفى: النظام الإعلامي الجديد ـ ص173 و191 ـ عالم المعرفة94 ـ الكويت1985

29 ـ مركز الإنماء القومي: م.س. ذ ـ ص11

30 ـ قرم، جورج: الشركات متعددة الجنسية ـ ص19 ـ الفكر العربي ع17

31 ـ صفدي، مطاع: عصر الاستشهاد الثقافي ـ ص17 ـ الفكر العربي المعاصر ع13

32 ـ عبد الدائم، عبد الله: في محاضرة له في مؤتمر تطوير التعليم ما قبل الجامعي بدمشق1986

33 ـ الحافظ، ياسين: الهزيمة والأيديولوجية المهزومة ـ ص264 ـ دار الطليعة بيروت 1979

34 ـ السابق: ص177

35 ـ وانغ، زيانهونغ: العادات الشعبية في بكين ـ ص61 ـ ترجمة حسن عباس ـ الثقافة العالمية ع25 ـ 2/ 1985

36 ـ الجابري، محمد عابد: التراث وتحديات العصر ـ ص73 ـ المستقبل العربي ع 69

37 ـ كريذروس، مايكل: م.س ـ ص38
38 ـ الغنام، محمد أحمد: من أجل تربية أفضل ـ ص9 ـ التربية الجديدة ع 25
39 ـ عبد الدائم، عبد الله: من رسالة باريس ـ ص176 ـ الثقافة العالمية ع25
40 ـ صن، أمارتيا: م . س ـ ص284
41 ـ وانغ، زيانهونغ: م . س ـ ص61
42 ـ عدد من المؤلفين: في الثقافة ، محاضرات اليونيسكو ـ عدد خاص من مجلة المعلم العربي ـ دمشق1955
43 ـ قرم، جورج: التنمية المفقودة ـ ص14 ـ دار الطليعة بيروت1981
44 ـ الصفدي، مطاع: م .س ص13

الفكر القومي العربي بين الثقافة والسياسة
ساطع الحصري (1880 ـ 1968) نموذجاً

1 ـ بين الثقافة والسياسة:

ظل الشعور بالتّمايز ملازماً حركة الأحداث في الدولة العربية بعد الإسلام في مختلف مراحلها وتطوّراتها، وكان هذا التّمايز جزءاً من أنماط سلوكية في مواجهة الأحداث التاريخية، ومناخات سادت في أصقاع الدولة التي شهدت توسّعاً هائلاً في عصر الدولة الأموية، وما تبع ذلك من حركات وثورات إبان العصر العباسي أدت إلى ظهور انقسامات ودول انفصالية حافظت في حدود متباينة على صلتها بالخلافة في مختلف مراحلها، عدا ما شهدته الأندلس والمغرب ومصر فيما بعد، من ظهور دولة الأندلس الأموية الواحدة ثمّ تمزّقاتها، وقيام الدّولة الفاطميّة ومنافستها للخلافة العبّاسيّة...

وكان في كثير من ملامحه يحمل سمات هي بشكل ما امتداد لشعور سابق على الإسلام على الرغم من غياب استقلالية المناطق العربية في شمالي الجزيرة وشمالي أفريقيا وتبعيتها للقوتين الأكبر في حينها، دولة الفرس، ودولة الروم. وليس ذلك فحسب، بل يمكن قراءة الوعي التاريخي عند العرب فيما كشفه المستشرقون عند العرب الشماليين، وقد وعوا وجودهم وانتماءهم منذ مطلع القرن الخامس الميلادي. ومنذ ذلك التاريخ بدأت لديهم حركة جادة لإقامة دولة مستقلة لهم عن الروم والفرس. وكانت مكة عاصمة التوحيد السياسي العربي قبل الإسلام. الأبحاث المتلاحقة والحفريات الحديثة كشفت عن كتابات كثيرة جنوبية وشمالية أرخت الوجود العربي وأبرزت تصورات ثقافية واجتماعية وحساً تاريخيًا فيما

يتعلق بالعلاقات مع الشعوب الأخرى. يدفع هذا بمجموعه إلى القول أن الوعي التاريخي في شمال الجزيرة وجنوبها بدأ في وقت مبكر. (1)

الشعور بالانتماء إلى العروبة لا يحتاج إلى الكثير من البحث والتمحيص، إذ كان يتجلى في أنماط من السلوك والخطاب الشفوي على ألسنة الرواة والشعراء وغير ذلك من مواقف وأحداث متفرقة. وهو لم يفارق حتى أحداث الاقتتال بين القبائل حين كانت توصف بالمروق وسوء التقدير والمغالات في ما يحدث، وكأنه كان دائماً يشار إلى ما يحدث على أنه مخالف لما يجب أن يكون بين أفخاذ وعشائر تنتمي إلى أرومة واحدة. وهذا الشعور لم يكن وليد ظرف أو ظروف بعينها، وإنما كان لظهوره صفة الديمومة تقريباً، وإن اختلفت أشكال التعبير عنه. من بعض تجليات الشعور بوحدة الانتماء البارزة ما تحلى به أدب تلك العهود ، في تلك المراحل من الفخر بالانتماء، من جهة وباللغة والمعاني التي اتصف بها الشعر العربي. لم يكن هذا الشعورفي تكوينه خاضعاً لعناوين محددة ولم يكن يبرز فيه مفهوم أو مجموعة مفاهيم محددة ـ كما في التاريخ الحديث والمعاصر ـ إذ لم تكن مفاهيم القومية والأمة العربية والوحدة العربية وما إلى ذلك مفاهيم متداولة إلا منذ فترة تاريخية قريبة، قد تكون نتيجة للتواصل والاحتكاك مع ما ساد في البلدان الأوربية عبر تكون الدول القومية.

يهمنا بداية أن نشير أن بحثاً في العروبة والانتماء القومي العربي في الوقت الحاضر، بشكل ما، لا يمكن أن ينظر إليه خارج البحث التّاريخي، لكن هذا لا يعني أن ينصرف الجهد إلى تأصيل الفكرة القومية عبر مراحل تاريخية بعيدة، فهذا ليس مما يفيد الثقافة العربية حاضراً، وهي تغالب ركودها وترنو إلى حركة نهوض مبنية على أسس من دواعٍ علمية ترى في التغير حركة هي من طبيعة الأشياء والحياة الاجتماعية... على الرّغم من أهمية النظر للموضوع نظرة تاريخية شاملة تتسع إلى النّظرة للأحداث في إطارها الكلّي.

وأن هذا البحث ــ وهو ما تجب الإشارة إليه ـ لا ينطلق من مسلّمات أو بديهيات، بقدر ما يحاول أن يلفت الانتباه إلى ما اعتور البحث في موضوعه من أسباب البعد عن العقل والعقلانية تحت ضغط مشاريع ذات أهداف مغايرة منها ما

هي شديدة العداء لمثل هذا الاتجاه ومنها ما لا ترى، لسبب أو لآخر، فيه ضرورة سياسية أو اجتماعية...

واللافت أنه في أيامنا هذه قد ظهرت اتجاهات متباينة المصادر والغايات في بحثها أو في علاقتها بالمفاهيم التي انتشرت في هذا المجال، وقد أشير إليها أعلاه، أظهر بعضها عداءً صريحاً تمثل في رمي الفكر القومي العربي بالانتماء إلى عدوّ اصطنعه لخدمة أغراضه، وبعضها عدّه ـ أي الفكر القومي ـ سبباً من انتكاسات الأمة وانحرافاتها. فلا يتورع أحدهم عن السخرية من الفكر القومي تحت مسمّى (الفكر القومجي) مثلاً، عبر تفسير قاصر بإلصاق كل المهانات التي لحقت بالعرب بعد سقوط بغداد نيسان 2003، وما حصل قبل ذلك من هزائم وإحباطات بسبب من الفكرة القومية وما انتمى إليها بحسب زعم بعض المتزاعمين... فكانت هذه الأحكام في واقع الحال شكلاً من أشكال التّهرب من مسؤولية أخلاقية واجتماعية وسياسية توانى العرب دولاً ومنظمات عن تحمّلها قبل الطّوفان وأثناءه....

ومن باب آخر كانت الشّماتة بما حصل وما تبعه لا ينفصل عن تاريخ من التباس الفكرة القومية عند بعض الحركات والكتّاب. كانت القومية العربية توصف على أنها ليست أكثر من نشاط عنصري شوفيني مساوٍ، فيما اعتقدوه، للنّازية، أو أنه لدى فريق آخر عودة إلى جاهلية غابرة. وعلى هذا الأساس فليس الفكر أو التفكير القومي إلا نشاطاً مخالفاً لحركة التاريخ أو أنه معادٍ للإيمان والعقيدة الدّينية...

هذا إضافةً لما واجهه الفكر القومي من منافسات من داخله، أي بين أهل البيت ذاته، إن صحّت العبارة، زُجّ به في باب المزايدات أحياناً وباب التخوين والإقصاء أحياناً أخرى... وامتازت هذه المنافسات بأنها خلطت بين الفكر القومي كونه يتعلق بالثقافة والتغيّر فيها والنّهوض بإرادة التغيير، لتكون الثقافة حصناً حصيناً للأمة وسلاحاً يساعدها على التجديد والتطوير، ويحافظ على تماسكها ودعم هذا التّماسك بالمصالح الفردية والفئوية. وأدى التّنافس بين الفئات التي اتخذت الفكر القومي هوية لها لسبب أو لآخر إلى خلط القومي بالسياسي. فاستُّغل القومي وأُقسر التفكير فيه والفكر المرتبط به للاستغلال والتشويه المتعمدين أحياناً أو بسبب من قصور التحليل ورد النتائج إلى أسباب غير واقعية لخدمة مشاريع

سياسية ومصالح آنية يستفيد منها أفراد أو فئات بعيداً عن الفهم القادر على ربط الأحداث بمسارات تاريخية وفكرية ناضجة. ناهيك عن التبدّلات السياسية التي اتخذت من الفكر القومي غطاء تستر به عوراتها من منطلقات انتهازية ومصالح فردية أو فئوية. مما أدى إلى تشوّيه هذا الفكر بخاصة أنها لم تسهم في إغنائه وتطويره.

جاءت الفكرة القومية في الموقع الملتبس بين الثقافي والسياسي، وهو التباس يقوم غالباً بسبب من تداخلهما، وعدم ملاحظة الاختلاف فيما بينهما وهو خلاف كان قائماً على العموم على أساس من طبيعة كل منهما. فالسياسة إذ تتجلى في الثقافة أو تتماهى معها يعني عند وضوح الحدود بينهما أن تكون المنظومة السياسية مستغرقة في البنية الثقافية، وليس العكس، وتتفاعل معها من الداخل مما يعصم السياسي من الوقوع في غرور الهيمنة على الثقافة، وبالتالي من السقوط في المغامرة والتجريب. علماً أن الوعي بالعلاقة بين الثقافة والسياسة يجنب السياسي من تفسير بعض الظواهر في حركة المجتمع تفسيراً يبعده عن التفكير في ربط الأسباب والمقدمات بنتائجها. فالثقافة في ثباتها وتغيرها تمنح السياسي النبيه الفرصة في عدم الانجرار بعيداً عن الواقع. إذ تشمل الثقافة التركيز على النظر إلى الإجمالي في شكل الحياة العامة. (2) الحالة المتعددة الإمكانيات لمفهوم الثقافة تجعلنا نرى إلى الثقافة على أنها عنصر المعنى لكل نشاط اجتماعي يرتفع ليكون موضع التأمل والتفكير، هكذا تصبح السياسة نشاطاً من داخل الثقافة وليس العكس، وإلا يكون السياسي، بحسن نية أو بسوئها، يريد أن يرهن المجتمع ويضحي به من أجل مصالح آنية ووفق نزعة للهيمنة.

ولما كانت المشاريع السياسية غير واضحة المعالم وليست محددة الأهداف وتبتعد في ممارسات أصحابها عن مشاركة الآخر في استثمار الأحداث والأفكار وإغنائها والاتجاه فيها نحو تعميق الفكرة القومية والبحث عما يقربها من جماهيرها ويجعل منها عنصر قوة، عمد هؤلاء في مختلف مواقعهم يخترعون الأوصاف والنعوت السلبية لا لممارسات منافسيهم وإنما إلى طرائق تفكيرهم نفسها، فبدلاً من البحث في أساليب الاستفادة من الآخر سخرت كل الأساليب لإقصائه "أي الآخر"

للاستئثار بمواقع خادعة عنده أو منافع آنية مما أعطى الآخرين الفرصة للتشكيك في الفكرة القومية ذاتها.

خُطف الثقافي من القومي ليصبح في خدمة السياسي وبالتالي أداة للفرقة، وسلاحاً بيد فئات مختلفة، بما في ذلك أصحاب المصلحة في انتشار الفكرة القومية وتطورها، مما أفسح المجال في إسناد نتائج الأخطاء التي وقع فيها السياسي من سوء أداء في السياسة والاقتصاد ومعالجة الأدواء الاجتماعية إلى الفكرة وليس إلى المرتكبين مضافاً إليها ما لم يقع، وتضخيم السلبيات وكأن المفروض أن يكون أصحاب الفكرة جنساً من الملائكة فلا يخطئون أبداً.

ليست الفكرة القومية أيديولوجية بقدر ما هي انتماء وهوية، فزجها في الممارسات السياسية واعتبارها سلاحاً بيد سلطة ما، أو حركة سياسية أو حزب من الأحزاب، جمد البحث في القومي وأحاله ليصبح أداة بيد السياسي يسوغ ممارساته ويقسره لتحسين صورته، بينما الأصح أن يعمل على قاعدة أن النهوض القومي لا يكون بالمراسيم والقوانين التي تسن وإنما بعملية تطوير ثقافي عام تسهم فيه مختلف قطاعات المجتمع دون استثناء.

عندما اختطف السياسي القومي وأبعده عن أن يكون عنصراً عضوياً في النمو الثقافي فقد حاصره ليكون جزءاً من خطاب سياسي أحادي وليس خطاباً ثقافياً فاعلاً ينتمي إلى ثقافة كونية متنامية.

استغراق القومي في السياسي وتداخل الثقافي مع أساليب اليومي المسيسة أدى إلى تراجع الفكر القومي وأضعف قدرته على التطور والتكيف مع المتغيرات المستمرة على صعد الحياة كافة. تحولت الفكرة القومية من كونها عنصراً فاعلاً ذا أفق مستقبلي متطور وعملية تثقيفية نهضوية ترتقي بثقافة المجتمع وتقربها من روح العصر بعيداً عن رسوبات الماضي والركود الذي أخر نموها قروناً ليست بسيطة، إلى أن أخذت منحىً عاطفياً تداخل من خلاله تحول الثقافة نحو ميول طائفية وإقليمية وقبلية تغذيها عصبويات نائمة أنهضت من سباتها.

ما لبثت الثقافة السائدة أن أُخذت من حالة فكرية قومية تتماشى مع روح العصر ومتطلباته لتتحول في أهم أجزائها المدونة إلى نصوص جامدة تدغدغ

العواطف وتهبط في تفسير المتغيرات وفهمها إلى كل ما هو بعيد عن روح التطور ومقتضياته. وأدى هذا الجمود ذاته إلى اختصار الثقافة في العزف على جوانب عاطفية استبعدت كل انفتاح على المستقبل، من بين ذلك استبعاد القومي وتبخيسه. انزلق الفكر عن منطلقه العقلاني والعلماني إلى ديماغوجية استنفرت تاريخاً من التأخر وغلفته بمثوبات حسية تنتظر من يؤوب إليها. كان من أبرز نتائج هذا المشهد أن فقد المجتمع قدرته على الممانعة. حصل هذا على شكل خفي حين ارتبطت به إحدى التجارب الوحدوية، حتى إذا تحركت القوى الانفصالية لم تجد من يتصدى لها. فقد كان جمهور الوحدة مغيباً عن ساحها وممنوعاً من الدفاع عنها، والنتيجة التي ترتبت على ذلك أن أصيب الناس بذهول منعهم أن يستعيدوا وعيهم وقد فقدوا الدليل العقلي من قبل ذلك، وليس بغيره ما يمكن أن يساعد على تقويم ما حصل وتصحيحه حيث يجب التصحيح وتدعيم الإيجابي حيث يكون. والنتيجة أن تحول الجمهور جماهيراً، وكل منها يدور في فلك، ويدور حول نقطة لا تلتقي مع أخرى افترقت عنها.

فتح فشل الحفاظ على الدولة التي امتلأت أذهان الكثيرين ببريق صورتها، على أنها النواة التي ستستقطب سائر الأقطار العربية، وفي فترة قصيرة، طوعاً أو عنوة لتنتقل الوحدة العربية من حالة الوجود بالقوة إلى أن تصبح موجودة بالفعل.

لكن الفشل في الحفاظ عليها والذود عنها فتح في جدار الفكر القومي ثغرة مازالت في اتساع. أدى ذلك إلى انكماش في صورة المفاهيم التي ارتكز عليها الفكر القومي العربي، فاصطنعت إغراءات أغوت المكلومين وأغرت المترصدين بالمزاوجة بين فكر وفكر، أو بتبخيس الفكرة نفسها، ونعتها بالخيالية والطوباوية حيناً، وبالرجعية والشوفينية أحياناً.

وساد نوع من فكر عبثي خلط بين المفاهيم فأوقف حركة الفكر القومي وجمدها بحجة عدم صلاحيتها أو بسبب من ضعف فاعليتها. ولم يعدم هؤلاء الحيلة بلجوئهم إلى مرجعيات من هنا وأخرى من هناك، واستخدموا أدوات ووسائل متعددة الأشكال وراءها نوايا مختلفة الأغراض أبعدت الفكر عن منظومة مفاهيم العروبة والأمة العربية والوحدة، فأخذت مساحة الاهتمام بالفكر القومي

تتراجع ، وحشر أصحابه في دائرة الدفاع بدلاً من تقويم ما حصل تقويماً بعيداً عن العواطف يعيد الأمور إلى نصابها مما يدفع إلى إغنائه وتطويره بما يحافظ على وجوده وبما يثريه ليصير أشد قوة في تفاعله مع حركة كونية تتسارع تغيراتها. أدى ذلك إلى حدوث جزر جماهيري في مناخ ثقافي تحركه أمزجة صبيانية لا تملك القدرة على فهم حركة الأشياء والمجتمعات. فضعف التمييز بين ثقافة قومية لها خصوصيتها وطرائق تطويرها وتحديثها المختلفة ، وبين الطموحات السياسية المحكومة بالآني والمؤقت. ولم يألُ المتسرعون والانتهازيون جهداً في تدبيج المقالات واستخدام النصوص التي دخلت في باب المقدس في كيل الاتهام تلو الاتهام بإسناد صفات التقصير وعدم صلاحية الرؤى القومية ورجعية هذا الفكر ولا راهنيته . وبدا أن منظومة الفكر القومي العربي والمنظومات الفرعية داخلها هشة لا تماسك بين عناصرها ، ولا تملك الأسباب التي تؤهلها للدخول إلى العصر ، وأن التفكير في مثل هذا الاتجاه نوع من العبث ومحاولة فاشلة ترمي إلى إعادة عقارب الساعة إلى الوراء.

تراجعت مساحة الفكر القومي على حساب فكر سياسي لا يستقر على حال تحركه شهوات ومصالح آنية طبعت الثقافة السائدة بطابعها ، وأعادت الثقافة الاجتماعية والسياسية إلى مراحل سابقة مما أدخل الفكر في حالة من الفوضى والاستسلام إلى قدرية دفعت بهذا الفكر إلى حالة سابقة على القومية ، وكل ما حصل كان يسوغ انحراف الثقافة عن مسارها ، ويعيد حركة الفكر إلى ما هو مخالف لطبيعة العصر. ومازالت الممارسات الانتهازية والأنانيات تتلطى تحت رداء الفكرة القومية نفسها حين تحتاج إلى مرجعية تفسر بها سلوكها. أدى هذا إلى تعميم فكر طوائفي يجد في حالة التجزئة مشروعية له أو في حالة تردي القيم ما برر له الرجعة إلى سلفية بعيدة عن كل تطور وتقدم حصل أو سيحصل في العالم من حولنا. ارتد الفكر بعامة عن العقلنة إلى مرحلة أقدم من علمانية نهضت بأمم الأرض وشعوبها.

مرّ على الفكر القومي حين من الزمن كثر فيه الحديث عن القومية العربية والوحدة ، وعن العروبة انتماء وهوية. وارتفع شعار عقلاني يدعو إلى هوية قومية منزهة عن الحزازات الطائفية والعنعنات العشائرية وما شابهها من أوشاب. لكن

الفكر القومي ما إن أخذ يشتد عوده حتى غلب على المتنطعين للعمل السياسي تحت لوائه الاستعجال للإمساك بالسلطة هنا أوهناك، والتمترس تحت شعاراته وتطويعها في التعبير عن أهداف لهم. وحين توالى مسلسل الهزائم والانتكاسات حمّل هذا الفكر وزر الممارسات التي تمت باسمه.

العودة إلى الفكرة القومية لا تعني اليوم، كما في الأمس، رجعة إلى الوراء وإنما هي كما يجب أن تكون مراجعة نقدية لما مورس تحت يافطة القومية العربية من طيش وما ارتكب باسمها من أخطاء وخطايا.

العودة إلى الفكر القومي ونفض ما تراكم عليه من سلوك فج ومن ذهنية غير متطورة هو الباب إلى تنقية الفكر السياسي والنهوض بالثقافة العربية للحاق بركب التطور والتقدم والإسهام بعقلانية ضرورية في حضارة العصر دونما شعور بدونية ودون تكاسل يتكئ على أفكار عفا عليها الزمن وتجاوزها التطور العلمي والتكنولوجي. وأول الخطوات المطلوبة تكون عملية مراجعة شاملة لهذا الفكر من أية جهة أتى وعلى أي مرتكز كان بناؤه.

مرة أخرى ليس العيب في الفكرة القومية، أو فيما كتبه المفكرون العرب من أي منطلق كانوا ينطلقون منه، لكن العيب الأكبر أن تتحمل الفكرة القومية وزر ما ارتكب باسمها وأن ينسب العجز العربي الرسمي وارتكابات النظام العربي البائس طيلة العقود الأخيرة لها. لقد انطلق السلوك السياسي من ردود أفعال على تطورات آنية فاستهلك الفكرة القومية وسد عليها المنافذ لدراسة الواقع وفهمه ولم يتح لنفسه الفرص اللازمة لإنتاج ثقافة قابلة للتطور ترفع من وعي الناس بحيث يصبح من المتاح التكيف مع التغير والتغيير في الطرائق والأساليب.

2 ـ لمحة تاريخية حول الثقافة والسياسة:

مر الفكر القومي العربي منذ أواسط القرن التاسع عشر بمراحل كانت تبشر بيقظة عامة تعيد إلى الأمة حضورها الذي غيبته القرون السابقة، ولم تكن مسيرة هذه الحركة التي بدأ ظهورها خجولاً وجلاً يتم وفق مسار خطي واحد، وإنما اتخذ

سبلاً متعددة الاتجاهات والتصورات، من تطلع إلى إصلاح عام في إطار دولة الخلافة إلى لامركزية تقوم على تمايز بين شعوب السلطنة، وأخيراً إلى الدعوى للانعتاق من سلطة غريبة أعاقت التقدم وأخرت حركة الحياة عن اللحاق بعالم قطع أشواطاً في الرقي الحضاري والاكتشافات العلمية والتطور على مستويات الابتكار والاختراع.

وظلت الرواسب الموروثة من المرحلة العثمانية وما سبقها من دور الانحدار تتداخل مع منظومة الأفكار القومية التي سلكت سبيل التفتيش عن الهوية وتعزيزها، وأخذ الفكر العربي عموماً في حركته الجديدة ينهض بأسئلته تحت ضغوط الوضع العام المتردي والحصار الذي نسجته حوله قوى الاستعمار والاستغلال على مختلف أصولها وأدواتها يدفع إلى الإجابة عليها (والبحث عنها في الماضي الذهبي وفي أصول الإسلام وفي حضارة الغرب. وعلى الرغم من اجتهادات الفكر وتعدد نزوعاته فإن إجابته على أسئلة الواقع كانت، على الأغلب، ناقصة وغائمة وبعيدة عن التجديد). (3)

يلاحظ أن هذه اليقظة في خطواتها الأولى توزعت بين اتجاهين، صدر كل منهما من موقع مختلف عن الآخر. تمثل الأول في بعض ما عبر عنه الكواكبي والأفغاني ورشيد رضا وشكيب أرسلان خلال الحكم العثماني، معتمدين على إعادة تأويل الإسلام. بينما ظهر الاتجاه الثاني عند كل من أديب إسحق، فرنسيس مراش ، شبلي شميل ورفاعة الطهطاوي... إذ وجد هؤلاء كل على طريقته ومستوى وعيه أن معالجة الأزمة لا تكون مجدية إلا تحت شعار الحرية. فإذا كان الانحطاط العثماني هو نتيجة تأويل ظلامي وفهم جاهل للإسلام، "تصبح مهمة تأويل الدين مهمة سياسية ترفع راية العقل والحرية".(4)

جاء في كتاب (غابة الحق) لفرنسيس مراش قوله :

"إذن فمشروعنا محاربة مملكة العبودية، وإنقاذ شعوبنا من قيودها لا يستوجب الملام... بل هو مستحسن وواجب... لأن الاستعباد مكروه عقلاً وطبعاً. وقد نهض العالم بأسره ضد هذه العادة المستهجنة، وما يحاكيها، فحارب من ظلم واعتدى، وأعد له السلاسل والأغلال".(5)

ومن الهام هنا ألا ننكر على أصحاب الاتجاه الأول أنهم لم يكونوا على جهل بالتمايز القومي، فقد ميز الأفغاني العرب من غيرهم فيما أهلهم لحمل رسالة الإسلام. "فالأمة العربية هي عرب قبل كل دين ومذهب".

وكانت دعوة الكواكبي للعروبة لا تشوبها شائبة:

"يا قوم، أعني بكم الناطقين بالضاد غير المسلمين، أدعوكم إلى تناسي الأحقاد والإساءات، وما جناه الأجداد والآباء، فقد كفى ما فعل ذلك على أيدي المثيرين، وأجلكم من أن لا تهتدوا لوسائل الاتحاد وأنتم المتنورون السابقون. فهذه أمة أوستريا وأميركا قد هداها العلم لطرائق شتى وأصول راسخة للاتحاد الوطني دون الديني، والوفاق الجنسي دون المذهبي".(6)

دخل الفكر القومي العربي بعد انتهاء الحكم العثماني مرحلة جديدة كانت بالغة الوضوح. إذ ظلت تتردد بين حين وحين سجالات بين من عدوا الحكم العثماني حلقة في سلسلة العهود العربية الإسلامية أو الإسلامية وإهمال مفردة العربية، ومن عدوها عهداً استعمارياً أقصى العرب واستعبدهم بشكل أو بآخر. انتشرت مفاهيم العرب والعروبة والأمة العربية والقومية العربية وغيرها في قاموس الفكر، وإن اختلف التنظير حول تشكل القومية ووجود الأمة، فمن قائل أن الأمة تشكلت في السوق الرأسمالية، ومن قائل أن الأمة موجودة ولكنها في حالة من الضعف ولن تلبث إلا أن تنهض من كبوتها. ومنهم من أكد على أن وجود الأمة العربية وجود واقعي، والحاجة ملحة كي ينهض العرب إلى جمع شتاتها بإيقاظ الشعور القومي الذي هو موجود بالقوة ولابد للعرب من أن ينقلوه إلى حالة الوجود بالفعل، ومن قائل أن المسؤولية المنوطة بالأجيال العربية بعامة ونخبها بخاصة تتطلب جهوداً متضافرة للعمل على الفكرة القومية وكل ما من شأنه أن ينمي الشعور القومي ويعضده.

استطاع المتنورون العرب أن يحيوا هذه المفاهيم التي كان لها دور هام في إيقاظ الشعور القومي، وقد عبر هذا الدور عن نفسه في حركات ومنتديات عمت المنطقة العربية وإن على اختلاف في الدرجة. وكرست البدايات أسماء مفكرين وقادة رأي تجمع بين أفكارهم ونشاطاتهم أهداف وحدة الأمة والتطلع إلى تقدمها ونهضتها، ولم ينقص هذه الأفكار والنشاطات العاطفة الوقادة وإرادة الفعل القومي.

هذا لا يعني أن الفكرة القومية عند العرب بصورتها التي أخذت تتشكل بعد المرحلة العثمانية أو في العقود الأخيرة منها جاءت خارج التطور الحثيث، أو أنها كانت جواباً مؤقتاً، أو حلاً مرتجلاً. فليست الفكرة في صورتها المنسوجة حروفاً قد تكون ترجمة لتطور حدث في العالم في مرحلة ما ترافق مع نهوض رأسمالي في أوربة على سبيل المثال. سبق الشعور في الانتماء إلى الأمة ما أخذ يتبلور فكراً قومياً في بدايات القرن العشرين، ليس في المشرق العربي، فحسب، كما ثبت لدى البعض ولكن ذلك كان يظهر واضحاً في كل مواجهة كانت تتم مع الآخر. كان التفكير المغرض يشدد على أن الانتماء إلى العروبة كان غائباً في بلدان المغرب العربي وأن التركيز على القومية العربية كان رداً على الحكم التركي ليس أكثر. لكن عودة بسيطة إلى الوراء تطلعنا على ما هو مخالف لهذا التفكير الذي ما زال سائداً حتى الآن في بعض الأدبيات السياسية والفكرية التي تتعرض للفكرة القومية. تصدى الباحث الجزائري المعروف أبو القاسم سعد الله لهذه المغالطات التي راجت وما تزال حول فكرة القومية العربية في بحث له بعنوان "الجزائر والقومية العربية" جاء فيه:

"سببان دعواني إلى كتابة هذا المقال، الأول هو الخطأ الكبير الذي وقع فيه مؤرخو القومية العربية، من عرب وأجانب، حين تناولوا ظهور هذه الفكرة وزمانها ومكانها وأسبابها. والثاني هو النزعة الغربية التي تروج الآن في الجزائر ـ المقال منشور عام 1966 ــ لأقلمة الثورة على أساس أنها ثورة أحفاد "بو غرطة" ضد أحفاد الرومان وليست ثورة أحفاد الغافقي ضد أحفاد شارل مارتل ،بو غرطة بطل نوميديا، الجزائر القديمة. الذي حارب الرومان بشجاعة ومات في الأسر. أما الغافقي فهو بطل معركة بلاط الشهداء سنة 732 للهجرة ضد الفرنجة بقيادة شارل مارتل". وأضاف:

"لم يكن انتماء الجزائر للعروبة رغبة ظرف من الظروف أو شخص من الأشخاص، العروبة حقيقة أدرك الجزائريون انتماءهم إليها منذ زمن بعيد، والفكرة القومية العربية قد ظهرت ،على الأقل، في مقاومة الشعب الجزائري للاحتلال الفرنسي منذ1835م".

وتابع الكاتب قوله :

"قد يكون حمدان خوجة المولود في الجزائر سنة 1773 والمتوفى في استنبول التي نفي إليها سنة 1845 من أوائل رواد القومية العربية في العصر الحديث، إن لم يكن أولهم. ناضل ضد الاحتلال الفرنسي لأرض الجزائر ونظم حزباً سياسياً قومياً لمناضلة الاستعمار، وحاول وضع تعريف للقومية العربية، حيث قال: إنها شهامة أمة قامت ترد العدوان الذي يهددها في لغتها ودينها وعاداتها وتقاليدها ووجودها.(7)

العروبة انتماء حضاري وثقافي وليست مقولة سياسية.

دخلت الحياة العربية بعد نهاية الحرب العالمية الأولى في منعطف حاد، آمال كبيرة وأهداف تتطلب جهوداً فكرية غير عادية تسهم في نقل الوعي العام الشعبي من مرحلة الاستسلام إلى مرحلة الفعل تقوده أفكار تنهض به من حالة الركود إلى الحركة. لم يكن الشعور القومي غائباً ولكنه بحاجة إلى وضوح تصنعه أقلام المتنورين والنهضويين، بعد أن حرضت على هذا الجانب الفكري الحركات السرية قبيل تلك الحرب وفي أثنائها. فالحركة القومية التي تجلت في ميادين الثورة والحرب انتظرت فعلاً ثقافياً يكون في مستواها.

جاء الجهد الثقافي ليكمل تلك الجهود التي أخذت في النمو منذ أواخر القرن التاسع عشر. كانت الحاجة ماسة إلى مفكرين قادرين على الفعل الثقافي ليعضد التحرك القومي ويرفعه إلى حيث تكون الثقافة القومية قابلة للتحول من ركودها إلى مستوى التفكير العقلاني، وإلى التخلص من تخلف أغلق أبواب التطور قروناً.

سطع نجم ساطع الحصري مفكراً قومياً، دأب دون كلل أن يرتقي بالفكرة القومية لتكون قادرة على أن تجمع العرب في فعل وحدوي يعيد لهم دوراً في الإسهام الحضاري والتقدم فقدوه في القرون الماضية. لم تكن جهوده منصبة على توضيح الفكرة القومية في أقوال وكتب فحسب، بل كان على ثقة تامة بأن الأهداف القومية لا تحققها المنابر والانتفاضات الآنية وإنما تنهض بها تربية تغذي في الأجيال عواطف قومية في إطار من عمل تربوي دؤوب مادته علوم عصرية وعقول منفتحة على كل جديد لا تُغرها ظواهر الأشياء بقدر ما تتحصن بفكر نقدي ووعي بقدرات الأمة.

لفت الحصري من البداية إلى خصوصية كل أمة تميزها عن غيرها من الأمم، وحذر من نسخ التجارب والأفكار عن الأمم الأخرى، ورأى في ذلك افتراءً على الأمة والفكرة القومية العربية، وجعل كل بحث في ذلك موضع التباس وتحجيم للفكرة لا يساعد على نموها في عقول الناس. ميز في بحث له نشره في مجلة العرفان عام 1923 بين الأسس التي قام عليها الشعور القومي عند الفرنسيين وما قام عليه عند الألمان والسويسريين واليابانيين، بحيث أن مفاهيم الوطن والأمة كانت قد تبلورت في مشاعر الناس على أشكال وأسس مختلفة عما هما عند كل شعب من هذه الشعوب.

فتح الحصري الباب واسعاً للتأسيس لفكر قومي عربي يكون الملاط لوحدة عربية تجاري العصر وتتفاعل معه. وكرس حياة امتدت به يكتب ويدرس ويعلّم ويناقش موضحاً الفكرة القومية مبيناً أهميتها ودورها كونها ضرورة ملحة وحاجة حيوية.

قلما نجد بين من دعا ومن كتب في الموضوع الذي بين أيدينا من أخلص لأفكاره ودافع عنها باستماتة قل نظيرها كما فعل، العروبة أولاً، ومعارضو العروبة كانوا بحاجة إلى من هو مثل ساطع الحصري يفند دعاويهم ويدحض الحجة بأوضح منها.

استحق ساطع الحصري المفكر القومي والمربي والعالم أن تكون حياته درساً في الفعل الثقافي والتربوي على طريق نهضة عربية شاملة مسلحة بالفكر والعقل، فهو سيظل مثالاً على العالم الناقد والمربي، وستظل آثاره في الفكر القومي والتربوي درساً لا يستغني عنه المؤمنون بالعروبة ثقافة وانتماء، ولا مندوحة لأي تجديد في الفكر القومي ومفاهيم العروبة والقومية من أن يقوم بالبناء عليها. وأن أي تجاوز لها لا يكون بإلغائها أو إهمالها. وإلا فيما عدا ذلك تضييع للثقافة العربية وللجهود والوقت.

ليس في عد ساطع الحصري نموذجاً للمفكر الذي استطاع بعبقريته ألا يبتعد بالفكر القومي العربي عن الثقافة وألا تطغى عليه السياسة مع وعيه لما بين الثقافة والسياسة من تواشج ومن تناقض في الوقت ذاته.

3 ـ ساطع الحصري "الولادة والنشأة":

ولد ساطع بن محمد هلال الحصري في الخامس من شهر آب 1880 في أسرة حلبية، كانت ولادته في مدينة صنعاء في اليمن، وقد كان والده رئيساً لمحكمة الاستئناف في ولاية اليمن. كان الوالد يصطحب أسرته حيث يكون عمله الوظيفي.

ولأن الوالد دائم التنقل انتقل الحصري معه وهو في سنوات عمره الأولى إلى كل من أضنة فأنقرة، فطرابلس الغرب، فاليمن مرة أخرى، ثم إلى قونية وطرابلس الغرب مرة جديدة.

كتب ساطع الحصري موجزاً عن حياته استجابة لطلب من إدارة مدرسة ساطع الحصري في حلب في رسالة بتاريخ 1960 سرد فيها ترجمة عن حياته، تحت عنوان وضعه هو: "خلاصة ترجمة حالي"، جاء فيها:

وبطبيعة الحال تنقّلت مع والدي بين المدن المذكورة واستانبول، حسب تطلّبات عمل والدي وتحولاته، ولكن عندما تعين والدي في طرابلس الغرب للمرة الثانية، كنت قد دخلت المدرسة الشاهانية سنة 1893، فبقيت في القسم الداخلي من المدرسة... وبعد ذلك تحول والدي إلى استانبول فبقيت مع أسرتنا إلى حين اكتمال دراستي في القسم العالي من المدرسة الملكية عام 1900.(7)

بسبب كثرة تنقلات والده لم تتح له فرصة الاستقرار في مدرسة ابتدائية واحدة قبل انتسابه إلى المدرسة الشاهانية فتعلم القراءة والكتابة من خلال إخوته الكبار، إذ كان ترتيبه بين الذكور منهم الثالث، تعلم التركية والفارسية، أما العربية فقد كان تعلمه إياها في الدرجة الثالثة.(8)

بعد تخرجه مارس الحياة العملية بنشاط ملحوظ، فكان كثير العطاء منفتحاً على الحياة مؤمناً بالعلم ودوره في مواكبة التطور. بعد حصوله على شهادة في الإدارة والسياسة من القسم العالي في المدرسة الشاهانية الملكية أمل أن ينتسب إلى مدرسة يستطيع من خلالها تطبيق أفكاره الإصلاحية، في وقت كانت دولة الخلافة العثمانية تجتاز مخاضاً صعباً، يحاول الإصلاحيون أن يجدوا فيه منفذاً يخرج الدولة من التخلف والجمود الذي طبع البلاد بطابعه إلى حيث يكون الدخول إلى العصر والتكيف مع مقتضياته ممكناً في البحث عن الوسائل التي تساعد المجتمع على الخروج من أسر عقول تحجرت تسد الأبواب أمام الأفكار الجديدة.

عاصر الحصري العقود الأخيرة من العهد العثماني وشهد استقلال المنطقة العربية عنها، و شهد بينهما الانقلاب التركي على نظام الخلافة وانتقال تركية إلى نظام علماني عصري مختلف عن نظام الحقبة العثمانية. تأثر الحصري بما طرأ من توالي الأحداث والتغيرات التي حصلت بعد الحرب العالمية الأولى، فتوزعت حياته العملية بين مرحلتين، أولاهما كانت في كنف الدولة العثمانية، والثانية تميزت بانتقاله للعيش في عدد من الدول العربية.

تحدث الحصري في روايته عن حياته ـ خلاصة ترجمة حالي ـ عن تينك المرحلتين، ولم تكن إحداهما أقل من الأخرى أهمية وتأثيراً على الحياة العامة. فيما يلي نلخص إنجازات هذا العالم المربي والمفكر القومي:

أ ـ في عهد الدولة العثمانية:

بدأ حياته العملية عام 1900 في وظائف الدولة. اتجه إلى العمل في التعليم مفضلاً ذلك على العمل في السياسة والإدارة بحسب ما تؤهله شهادته، في السياسة والإدارة. درّس العلوم الطبيعية، وهي من خارج اختصاصه إلى جانب اهتمامه بتدريس الرياضيات في الفترة المسائية من اليوم الدراسي. وكان يحدوه الأمل أن يسهم بواسطة التعليم في نشر الأفكار التنويرية وفي عمليات التحديث التي كانت تشغل اهتمام النخبة من متنوري رعايا السلطنة. صادف عقبات كثيرة تجعل من عمله في التعليم يقصّر عن بلوغ ما كان يرغب فيه. كان في مواقع أخذ القرار الكثيرون من الذين كانوا يضعون العصي في العجلات، بين هؤلاء من كان يعارض افتتاح المدارس ويرى في تعميم التعليم أخطاء يجب عدم حصولها. دفعته هذه العراقيل إلى طلب العمل في مجال الإدارة حيث ظل يمارس التعليم إلى جانب العمل فيها. وأخذ يلقي الدروس في عدد من خريجي المدرسة الملكية الشاهانية في أصول الإدارة بما يتعلق بنطاق تأهيلهم للعمل في مختلف الدوائر التي تتبع كل ولاية من ولايات السلطنة، ليتأهلوا للعمل في وظيفة قائمقام في أحد الأقضية. إلا أنه بعد الانقلاب العثماني المشهور عام 1908 وإعلان الدستور عاد إلى التعليم وقد عين أستاذاً للتربية في الجامعة التي كانت معروفة باسم دار الفنون. (9)

ودرّس (علم الأقوام) في المدرسة الملكية الشّاهانيّة والتي صار اسمها فيما بعد مدرسة العلوم السياسية، وعمل أستاذاً للتربية والاجتماع في دار الخلافة العليا ودار المعلمين العالية. ثم تولّى إدارة دار المعلمين عام 1909وأسسها على نمط جديد حيث ضمت ثلاثة أقسام، القسم الأول يؤهل المتعلمين فيه ليكونوا معلمين في المدارس الثانوية، والقسم الثاني يؤهل المتعلمين ليكونوا معلمين في المدارس الابتدائية، أما القسم الثالث فوظيفته تأهيل خريجيه وإعدادهم للتدريس في دور المعلمين التي أخذت تُحدَث في مختلف ولايات الدولة. وقد صار لهذه المدرسة تحت إدارة الحصري شأن هام.

وصف الباحث السوفييتي (غوردليفسكي) ما طرأ على دار المعلمين هذه بفضل ما أدخل عليها الحصري من تطوير، وما أحدثته في مجال التربية من تجديد وتقدم، قال:

"ودبّ نبض الحياة في دار المعلمين أيضاً... فعهدت إدارة المعلمين إلى رجل قوي العزم، واسع الثقافة، هو ساطع بك، الذي راح يشيع بين التلامذة مبادئ، كانت غريبة على تركيا آنذاك، مبادئ التعمق في التفكير والجدية في العمل.وصار نداؤه :

(تشاليش مالي، تشاليش مالي)، أي العمل بدون فتور أشبه بأنشودة تترنم بها شفاه كل عثماني متعلم. إضافة لما كان يرسل به إلى وزارة المعارف من رسائل وتقارير ومشاريع تهدف إلى النهوض بثقافة معلمي البلاد المقبلين ". (10)

ومن أعماله في هذه المرحلة رئاسته لتحرير مجلّتي التّدريبات الابتدائية والتربية. كما عمل على إصلاح بعض المدارس الأخرى، وآخرها في هذه المرحلة تأسيسه للمدرسة الحديثة بأقسامها الثلاثة، الأول (عش الأطفال) أي (روضة الأطفال)، والثاني المدرسة الابتدائية الحديثة، أما القسم الثالث فهو دار المربيات لتخريج معلمات ومربيات رياض الأطفال. إلى جانب هذا النشاط في العمل التربوي كان يكتب المقالات، وكان عضواً في جمعية المطبوعات العثمانية، وبعد ذلك رأس مؤتمر المطبوعات.

ب ـ في البلاد العربية:

غادر الحصري تركيا في عام 1919، حين وجد نفسه في صفّ أبناء جلدته العرب، إلى سورية وقد تولّى فيها عدّة مهام ووظائف أوّلها مفتّش المعارف العام؛ بين 1919/4/16 ولغاية 1919 /4/30 ليتسلم وظيفة مدير المعارف العام، من 1 /1919/5 إلى حين إعلان استقلال سورية في 1920/3/9 إذ اختير ليكون وزيراً للمعارف من1920/3/10 إلى 1920/7/27 حين اغتيلت أول دولة مستقلة في سورية وأُجبر الملك فيصل على مغادرتها...

غادر الحصري إلى العراق بعد تولية الملك فيصل عليها، ولكنه قبل ذلك أقام في القاهرة عاماً كاملاً مطّلعاً وباحثاً في النظام التربوي الذي كان سائداً فيها.

كان اختياره الذهاب إلى العراق تلبية لطلب الملك فيصل نتيجة للعلاقة الودّية التي نمت بين الرّجلين. " واصل الحصري نشاطه في الإطار الذي اختاره لنفسه، إطار العمل التربوي ". فتسلم مهاماً تربويّة هامة في العراق، بداية بوظيفة معاون وزير المعارف وبعدها مدير المعارف العام وذلك من 1922/3/5 إلى 1927/8/31 إلى جانب إلقائه المحاضرات في دار المعلمين العليا في التربية وعلم الاجتماع. ثم عمل إلى تاريخ 1931/10/1 أستاذاً للتربية في دار المعلمين العليا؛ فمراقب التعليم العام، 1931/10/1 وبعدها رئيساً لكلية الحقوق ومديراً للآثار العامة، ثم مديراً للآثار القديمة، ومراقبة التربية والتدريس العام.

وفي عام 1941 بعد أن أُنهي عمله في مديرية الآثار نزعت منه الجنسية العراقية وأخرج من العراق بسبب مواقفه من ثورة رشيد عالي الكيلاني. سافر إلى بيروت إلى حين إعادة الحياة الدستورية إلى سورية عام 1944 فاستدعته الحكومة السورية لإصلاح التعليم في وظيفة مستشار فني بوزارة المعارف حتى عام 1947. حيث استدعته الحكومة المصرية لإلقاء محاضرات في معهد التربية في القاهرة كأستاذ زائر إلى عام 1950 وبعد ذلك أوكل إليه عمل مستشار فني للإدارة الثقافية التابعة لجامعة الدول العربية بالإضافة لعمله السابق إلى أن استقال في 1950/12/30.

في عام 1953 عين مديراً لمعهد الدراسات العربية العالية وأستاذاً للقومية العربية وهو المعهد الذي أنشئ بناءً على اقتراحه، لكن آماله خابت إذ تحوّل المعهد

إلى مؤسسة تعليمية وليس مركز أبحاث كما كان يريد، فيقدّم استقالته من إدارته عام 1956، ثم ليستقيل من التدريس فيه عام 1957. (11)

تفرّغ الحصري بعد ذلك للتأليف مخلّفاً تراثاً فكرياً ضخماً، يحتاج دائماً إلى الدراسة والبحث فيه. كان قد اقتنع منذ أيام إقامته في دمشق في عهد عدد من الحكومات القصيرة العمر في ظل غياب الاستقرار السياسي؛ كذلك في خلال إقامته في العراق حيث تألفت ثلاثون وزارة، أن يختار نهج عدم المشاركة في نشاط الحكومات والأحزاب السياسية مكرّساً جهده في مختلف الوظائف التي شغلها لتوجيه التعليم نحو السبيل القومي بسبب من شعوره بضرورة الاضطلاع بصياغة نظرية قومية متكاملة من شأنها أن تغدو عاملاً فعّالاً في ضم صفوف العرب في الأوضاع السياسية الجديدة.(12)

لكن هذا المفكر ورجل الإصلاح الكبير ووجه بالكثير من العنت والصعوبات والعداء من أصحاب الأفكار الرجعية. منهم من لم يكن مؤمناً بجدوى التعليم وافتتاح المزيد من المدارس، ومنهم من عارض التوّجه القومي العربي في المناهج، وفريقٌ آخر كان يقف بصرامةٍ ضد تعليم البنات. هذا إلى جانب تصدّيه الدّائم لكل دعوة أنكرت الفكرة القومية العربية وتعمدت تشويه مفهومي العروبة والانتماء القومي.

4 ـ المنحى العلماني في فكر الحصري:

اهتم الحصري وهو لم يزل فتى على مقاعد الدرس بالعلوم العصرية، وكان اهتمامه بالرياضيات شديداً منذ البدايات. وفي المدرسة الشاهانية الملكية حيث كان يدرس السياسة والإدارة لم ينقطع عن دراسة الرياضيات، كما كان يتابع دراسة العلوم الطبيعية في المساء.

ولم يفته إضافة إلى ما ذكر أن يبدي اهتماماً جيداً في الاطلاع على الفكر الفلسفي الأوربي.... مما جعله يفهم جيداً النظريتين الفرنسية والألمانية في القومية. وقد شكلت اهتماماته هذه بعض مدخلات جهوده الفكرية وقادته إلى الاضطلاع بعمل فكري ما زال يشكل مصدراً هاماً وأساسياً في الحياة الفكرية العربية،

ومدخلاً لا غنى عنه لأي بحث جاد في مجال التأريخ للتحولات الفكرية عند كثير من المهتمين بفهم الثقافة العربية وتطورها والمؤثرات فيها في القرن العشرين. وكانت مخرجات جهوده الفكرية هذه كماً لا يستهان به من الكتب والأبحاث التي أغنت الفكر القومي العربي حيث كان أكثر الناس كتابة في موضوعاته وأشدهم عزماً في الدفاع عن فكرة القومية العربية وعن العروبة هوية وانتماء. وكانت أفكاره دائماً تصدر عن وعي علماني مدرك اتجاهات التطور وأسباب التقدم، مستبعدة كل المعوقات الفكرية، من سلفية تمترست عند العامل الديني عاملاً واحداً وحيداً في تكوين الأمم، ومن إقليمية عادت تنبش تاريخاً سحيقاً موغلاً في القدم تسوغ من خلاله مسلمات اصطنعتها. تصدى الحصري مناقشاً ومبرهناً يكشف طوباوية هذه الأفكار منكراً دورها في شرذمة الأمة والوقوف في وجه نهضتها الوليدة. قارع الحجة بالحجة، سلاحه منطق علمي بعيداً عن الغيبية والمثالية المغالية باستنادها إلى فرضيات يصعب أن تجد لها سنداً يكسبها بعضاً من المصداقية. وكانت حججه وبراهينه دائماً بعيدة عن المماحكات اللفظية والدوغمائية، موظفاً ثقافته في علم الاجتماع والإدارة، متطلعاً إلى إعادة بناء المجتمع العربي على أسس ديمقراطية، وإلى إقامة صناعة وطنيّة متطوّرة.

استوعب الحصري رومانتيكية (فيخته) الألماني وتأثّر بالنّظرية الألمانية لكنّه أبقى مسافة بين أسلوبه الفكري وأسلوب الفيلسوف الألماني. ذلك أن بعد الشقة الزمانية بين المفكرين لم تدع ساطع الحصري ورصانته أن يقول ما قاله الفيلسوف الآلماني قبل اندلاع حربين عالميتين هزّتا ضمير العالم. كما أن مزاجه العقلاني جعله يستلهم من خطب فيخته في عام 1807 ــ 1808 ما كان يتميز به من وعي وتدبير. فالتاريخ كواقع والعقلانية كمزاج ردعا الحصري ولسانه عن تجاوز التّعبير المعتدل.(13)

أما نظرية المشيئة أو الإرادة كما قال بها (إرنست رينان، 1827 ــ 1892) والمبنية على نظريته التي تقول إن تكوّن الأمم شيء جديد على التاريخ .. نافياً وجود أمة صينية في الماضي وكذلك بالنسبة إلى الدّول القديمة. إذ إن الأمة بدأت في التكون في أوربة بعد سقوط النظم الإقطاعية وهي تقوم في الحاضر على التوافق

والرغبة في العيش المشترك والإرادة القاضية بمواصلة الجهد لإعلاء ما وصل إلينا غير مجزّأ.(14)

تصدى ساطع الحصري مشايعي هذه النظرية وانتقدها كونها أي المشيئة أو الإرادة المشتركة لا تنشأ اعتباطاً من غير مقومات طبيعية تدفعها إلى هذه المشيئة. لذا فليست المشيئة سبباً في تكوّن الأمة وإنما هي نتيجة لعوامل أكثر أصالة، ويعود إلى التاريخ موضّحاً أن أحداثه تدل على تجمعات قامت بفعل هذا العامل لكنها سرعان ما تلاشت. (15)

فكل قولٍ ادعى صاحبه أن الحصري كان في تفكيره القومي ينقل ما كان رائجاً في أوربة هو قولٌ هراء، إن الرجل اطلع على الفكر الأوربي لكنه لم يأخذ به على علاته، فلم يكن ناقلاً لآراء الآخرين وإن بدت عنده بعض التأثرات بها، لكنها لم تكن ليأخذ بها بعيداً عن نشاطه العملي والمكانة التي أثرت فيها الصراعات الفكرية والسياسية في الوطن العربي. لم تكن التقاليد العلمانية التي انخرط بها الحصري جديدة أو غائبة عن الساحة الثقافية في البلدان العربية فمنذ أواخر القرن التاسع عشر صاغ روّاد الحداثة من العرب مفاهيم للقومية قائمة على رابطة اللغة كأديب إسحق. كما أن فرح أنطون وشبلي شملي انتقدا التعصّب الدّيني وأساليب المتزمّتين وأفكارهم في ضوء نظرية الحق الطبيعي، وقد عمل يعقوب صروف في تبني وترويج المعرفة العلمية كأساس للتقدّم الاجتماعي. كذلك فإن الحصري إضافةً لما أشاعه هؤلاء في الأجواء الثّقافية كان قد تأثر بالنزعة العلمانية التي انتشرت في تركيا أثناء العقود الأخيرة للسلطنة العثمانية.

وهكذا نرى أن غلبة المنحى العلماني عند الحصري قد جاءت نتيجة لأسباب كثيرة وليس لسبب واحد أو أنها جاءت اقتباساً من مصدر وحيد. لكنها نتيجة استقراء ونظرة متكاملة. (16)

5 ـ عاملا اللغة والتاريخ:

عندما تساءل الحصري قائلاً: ما هي العناصر التي تكوّن القومية وتؤلف الأمة، أجاب بوضوح عن هذا السّؤال وفي وقت مبكّر، في محاضرة له في نادي المعلمين في بغداد 1928، قائلاً:

"إنّ أول ما يخطر على البال، ويلفت النّظر، في هذا الصّدد، هو وحدة الأصل والمنشأ. يظن الناس عادةً أن كل أمة من الأمم تنحدر من أصل واحد، ويزعمون أن جميع أفراد الأمة الواحدة يكونون كالأشقاء المنحدرين من صلب أب واحد. ولذلك نجدهم يكررون في كل مناسبة كثيراً من التعبيرات الدّالة على هذا الزعم، كقولهم: أجدادنا، آباؤنا، إخواننا....

ويضيف: لا يستند هذا الظن إلى أساس صحيح، لأن جميع الأبحاث العلمية ــ المستمدة من حقائب التاريخ ومن مكتشفات علم الإنسان ومكتسبات علم الأقوام ــ لا تترك مجالاً للشك في أنه لا يوجد على وجه البسيطة أمة تتحدّر من أصل واحد فعلاً، ولا توجد على الأرض أمة خالصة الدم تماماً". (17)

هكذا بدأ الحصري يصور مفهوم القومية بعيداً عن أي اتجاه عنصري أو عرقي. بدأ ذلك قبل أن يشهد العالم تصورين آخرين للقومية أدّيا إلى حرب مدمرة توزعت أحداثها في قارات العالم؛ والمقصود بذلك النّازية والفاشيّة. فقد سبق فكرة أولئك الذين اعتقدوا أنهم كشفوا ما في الفكرة القومية من بذور شوفينية وابتداء من ذلك وصفت كل فكرة قومية، بتعميم لامنطقي، أن القومية فعل أونتيجة للنظريات العتصرية والعرقية.

تميّز الحصري عن هؤلاء، ساسة ومفكرين، أنه كان منذ البداية واعياً لما في الدّعوات العنصرية والعرقية من عدوانية وتعالٍ عن الواقع. وميّز بين القومية العربية التي لها وجود كشفت عنه الأحداث في سلوكٍ الناس قبل ظهور الفكرة القومية في أوربة، والقوميات الغربية وهذا ما يمنح القومية العربية ما يميزها من حيث النتيجة عن الأفكار القومية الأخرى.

ويحسب للحصري أنه من بين الكثيرين ممن درسوا الفكرة القومية أو بشّروا بها، تميّز باعتماده الحجج والبراهين العقلية بعيداً عن الإنشائية والتزويق اللذين كانا تنقصهما الموضوعية ويتعاملان مع الموضوع من منطلق عاطفي أو رغبات شخصية.

التمايز بين فكرة القومية العربية ومثيلاتها في الغرب من حيث نشوء كل منهما رأى الحصري، منذ البداية، إن ظهور الشعور القومي والأفكار القومية في

العالم العربي قد تسارعت وتيرتهما في العصر الحديث نتيجة التصادم مع الغرب الرأسمالي ؛ وهذا التصادم انعكس على وضع العامل الاقتصادي أو المصالح الاقتصادية بالنسبة للفكرة القومية ، وكان الحصري قد أهمل العامل الذي في مقالاته الأولى ، أو أنه أحله كعامل ثانوي بالمقارنة مع عاملي اللغة والتاريخ.

(إن أهم العوامل التي تؤدي إلى تكوين القرابة المعنوية التي يشعر بها الأفراد في الأمم المختلفة ، هما عاملا اللغة والتاريخ ، فإن الاعتقاد بوحدة الأصل إنما يكون في الدرجة الأولى من الوحدة في اللغة وفي الاشتراك في التاريخ). (18)

ويضيف :

(لذلك نستطيع أن نقول إن الأمم يتميز بعضها من بعض ـ في الدرجة الأولى ـ بلغتها ، وأن حياة الأمم تقوم ، قبل كل شيء ، على لغاتها. وإذا أضاعت أمة من الأمم لغتها ، وصارت تتكلم بلغة أخرى ؛ تكون قد فقدت الحياة واندمجت في الأمة التي اقتبست عنها لغتها الجديدة). (19)

وكتب موضحاً أهمية العامل التاريخي ، قائلاً :

(أما التاريخ فهو شعور الأمة وذاكرتها. فإن كل أمة من الأمم ، إنما تشعر بذاتها وتكوّن شخصيتها بواسطة تاريخها الخاص). وأضاف : (عندما أقول التاريخ ، لا أقصد بذلك التاريخ المدوّن في الكتب ــ أي التاريخ المدون بين صحائف المطبوعات والمخطوطات ـ بل أقصد التاريخ الحيّ في النفوس ، الشائع في الأذهان ، المستولي على التقاليد...).

ثم يجمل العاملين معا قائلاً :

(إن اللغة والتاريخ هما العاملان الأصليان اللذان يؤثران أشد التأثير في تكوين القوميات ، والأمة التي تنسى تاريخها تكون قد فقدت شعورها ، وأصبحت في حالة من السّبات ، وإن لم تفقد الحياة. وتستطيع هذه الأمة استعادة وعيها وشعورها بالعودة إلى تاريخها القومي والاهتمام به اهتماماً فعلياً ، ولكنها إذا فقدت لغتها ، تكون عندئذٍ قد فقدت الحياة ودخلت عالم الأموات ، فلا يبقى سبيل إلى عودتها إلى الحياة ، فضلاً عن استعادتها الوعي والشعور). (20)

ابتعد الحصري في معظم ما كتب عن الإطلاقية في الأحكام ولم يكن يميل إلى التفوق الفطري لأبناء لغة من اللغات على الآخرين. فقد عمل على دحض النظريات التي عدت الطبع القومي وعقل الأمة أشياء أزلية ربانية كما فعل (رينان)، خاصة عندما قرر أن اللغات السامية أقل ميلاً إلى التحليل بالمقارنة مع اللغات الهندوأوربية. ولكنه لم ينكر أهمية العواطف والأفكار المشتركة بين الناس الذين يتكلمون بلغة واحدة، وكذلك قوله بالعروبة حصيلة طبيعية ونتاجاً حتمياً لوجود اللغة العربية. (21)

لم يكن الحصري المفكر الوحيد الذي اهتم باللغة كونها عاملاً رئيسياً من عوامل نشوء الفكرة القومية، وأنها القمينة بالحفاظ على شخصية الأمة وهويتها، شاركه في ذلك عدد من المفكرين العرب الذين تعرضوا للبحث في نشوء الأمم وبقائها . وشكل القول والبحث في الدور الهام للغة في هذا المجال قاسماً مشتركاً بين هؤلاء.

لقد أدرك العرب الخطر الذي بات يهدد وجودهم في وقت متأخر من خضوعهم للدولة العثمانية ، وكان ذلك حين أخذت نخبهم تشعر بما يبيت لهم من إقصاء اللغة العربية عن دورها في إدارات الدولة، وفرض التركية لغة وحيدة في مؤسسات الدولة ودواوينها وإداراتها. وأخذت الأذهان تدرك مخاطر الدمج المخطط له، وما له من أثر في القضاء على ما يميز الأمة العربية عن غيرها من شعوب الدولة وأممها. كما أن ما كان يعتبر أنه ملب لحاجات الناس من البقاء داخل سلطة أولئك المتنكرين للحقوق القومية، قد سقط في امتحان تأمين الأمن والاستقرار وقد أخذت الدولة تظهر في كل يوم عجزها سواء في حروبها في البلقان أو في شمالي أفريقيا، وفي تردي الأوضاع الداخلية. ترافق هذا الشعور مع ظهور الوعي بالتميز عن الأتراك وبالمخاطر التي تحدق باللغة العربية، وبالأثر الذي يحدثه تدهور اللغة في مستقبل الأمة. كانت الدعوات المنادية بحماية اللغة تنطلق صريحة قوية في الصحافة آنئذ، ومنها تلك التي لم تكن قد تخلت بعد عن التمسك بالخلافة إذ وجدوا أن الضرر الذي يلحق باللغة ستكون له مخاطر على وجود الخلافة الإسلامية ذاتها في الصميم فيفقدها مبرر وجودها.

كتب محمد رشيد رضا في المنار قائلاً: " وتترجح اللغة العربية على التركية كونها لغة الدين".

وكتب في مكان آخر:

لو اعتمد السلاطين على اللغة العربية كما فعل السلطان سليم الأول، من جعلها اللغة الرسمية للدولة، لكان معظم الأتراك ينطقون بالضاد، ومنها محو الامتياز الجنسي بين العرب والأتراك.(22)

ومن الذين بادروا إلى القيام بخطوات عملية بهدف خدمة اللغة العربية وصونها في تلك الفترة بطرس البستاني، وهو الذي انطلق من موضوعة مفادها:

أن اللغة العربية هي العامل الأهم في تحديد الهوية القومية. (23) وكان من أوائل ما أنجز في هذا المجال وضعه لأول قاموس عربي عصري وأول موسوعة عربية في العصر الحديث، وليس ذلك فحسب، وإنما أنشأ أيضاً أول مدرسة عصرية عربية في لبنان. وأنشأ ما يمكن تسميته أول مجمع أدبي عربي، سماه مجمع التهذيب. وإلى جانب البستاني أسهم آخرون كل في جهد خاص به لكنه خدم اللغة من خلاله، نذكر منهم إبراهيم اليازجي في شعره الذي كان يحث العرب على اليقظة، وجرجي زيدان بما قدمه من روايات تاريخية عربية هامة في وقتها.

لكن الإسهامات التي ما زال لها الصدارة في ربط الوجود القومي باللغة يمكن لنا أن نقطع بأن أجودها وأكثرها موضوعية نجده فيما خلفه كل من ساطع الحصري وزكي الأرسوزي. كلا الرجلين كانت أفكارهما ذات مصداقية عالية من حيث تكريس كل منهما حياته للعروبة، هوية وانتماء، وتعمقاً في البحث عن علاقة اللغة بالهوية وأهميتها في الحفاظ على الأمة، ولأن المقاربة لما كتباه تكسب البحث في الفكر القومي عمقاً ثقافياً غيبته الأيديولوجيات التي استغرقت السياسة فيها الثقافة. فقد أبعدت يوميات السياسة وجمود بعض الأيديولوجيات الناس في مراحل متفرقة عن الفعل الثقافي. ابتعدت الثقافة عن دائرة الفعل إلى التوقف عند حدود جعلتها نهباً تتقاذفه أهواء اللاعبين من الانتهازيين حيناً ومن أصحاب العقول المعطلة يعيدانها إلى دهاليز العصور المعتمة أحياناً كثيرة. هذا في الوقت الذي كان نشوء الحركات القومية قد بدأ يستثمر الظروف الاجتماعية والأحداث المتوالية

بعد دخول العرب مرحلة بناء الدولة فلم تغفل الحركات السياسية والاجتماعية عن عامل اللغة العربية كمقوم من مقومات وجود الأمة ونموها تحدده رؤية قوامها خبرة تاريخية ولغة وتراث ثقافي مشترك. لكن الفكرة التي ما زالت غضة لم ترعها عقول ناضجة قد وقعت في وهم أصحاب الحركات المستعجلة الوصول، حيث غلبت لديهم المصالح الآنية فغاب عنهم وضوح الرؤيا.

أنجز كل من الحصري والأرسوزي مشروعه انطلاقاً من عامل اللغة أولاً، ولكن، كل من منطلق مختلف إلى حد ما. فقد وجد الحصري أن الأمة تكون موجودة بوجود مقوماتها، أي اللغة والتاريخ. أما الأرسوزي فقد دخل مبحث وجود الأمة العربية من خلال أطروحته رسالة الأمة العربية إلى العالم "بعث الأمة العربية ورسالتها إلى العالم". واعتبر أن للأمة العربية وجوداً سابقاً على القومية. فأبناء الأمة ــ يقول الأرسوزي ــ وإن ظهروا على مسرح الوجود متفرقين متفاوتين، فإنهم بمصدر انبثاقهم موحدون. وتنسجم بوحدتهم أعمالهم في إنشاء مؤسساتهم متتامة، رغم التباعد في المكان، والتفاوت في الزمان. (24)

ولج الحصري إلى مفهوم الأمة مباشرة دون الحفر بعيداً في الأصول والعودة إلى البدئية أو البديء التي تدل عند الأرسوزي على الأصيل مقابل الهجين. وعرف الأمة تعريفاً إجرائياً انطلاقاً من أنها ككل كائن عضوي لها حياتها وشعورها. وأن اللغة حياة الأمة ذاتها انطلاقاً من أن اللغة حياة الأمة والتاريخ شعورها، وإذا كان كل من اللغة والتاريخ وكلاهما معاً عاملين أصيلين يؤثران في تكوين القومية، فالحصري يرجح اللغة. فالقومية في نظره نتيجة طبيعية للوحدة اللغوية. تربط اللغة الأفراد بسلسلة طويلة ومعقدة من الروابط الفكرية والعاطفية، وهي التي تكون أعلى الروابط وأقواها التي تربط الأفراد بالجماعات. واستبعد كون المجتمع البشري خاضعاً لقوانين الزمان والمكان حيث يرد وجود الأمة إلى الوحدة اللغوية كما سلف قوله:

"إن العواطف والأفكار المشتركة بين الناس الذين يتكلمون بلغة واحدة، تكون ملايين المرات أكثر من التي قد تتكون بين البعض من الذين يتكلمون بلغات مختلفة". (25)

لم يكتف الحصري بالتنظير في دور اللغة وأهميتها بل توجه إلى الناشئة لتكون الفصيحة لسانهم. وفي إسهاماته الهامة في رسم المناهج التعليمية في سورية والعراق وفي الجامعة العربية ركز دائماً على إعادة الحياة إلى آداب اللغة. ووضع في منهجه الإصلاحي للمعارف في سورية ما بين1941 و1947 شرط نجاح الطالب وانتقاله من صف إلى صف ومن مرحلة إلى مرحلة حصوله على علامة لا تقل عن 50٪ من علامة النهاية العظمى في مادة اللغة العربية.

وتحدث الأرسوزي وكتب فيما يخص اللغة الشيء الكثير، لكنه لم يستخدم لفظة اللغة لأنه ينسبها إلى اللغو. لذلك فقد كتب وتحدث عن اللسان العربي. ورأى فيه ما هو أبعد من كونه مقوماً من مقومات القومية أو عملاً من عوامل تكوين الأمة، بل وجد فيه "عبقرية الأمة". بحيث أن للسان العربي فلسفة متكاملة، استفاض في شرحها، وبسطها في كتابه العبقرية العربية في لسانها. واستفاض في توضيح خصوصية العربية مؤكداً على ما لهذا اللسان من قوة بيانية تبدع لكل معنى من المعاني الوجودية الكبرى صورة تستقطبه وتؤديه بأمانة. ووجد في سياق بحثه اللغوي (أي بحثه في اللسان العربي) أنه اكتشف الطريق المؤدية إلى اللغة، وهي طريق لا تؤدي غرضها إلا بالاستناد إلى نظام اللسان العربي.(26)

ندب الأرسوزي نفسه لينهض بحمل رسالة الأمة العربية، فتبتل في محرابها، ورسم منهجاً للبحث في أصول اللغة والطريق إلى بعث الأمة العربية مؤكداً على ما يميز الكلام العربي عبر ما رآه من صفات موجودة فيه. فوجد جذوره في الأصوات الطبيعية، وهذا سر أصالة هذا اللسان، والأصالة هنا يضعها مقابل الهجانة. (27) ووجد أن الكلام العربي يرجع إلى أحد مصدرين صوتيين رئيسيين: الأول نجده في عبارات الهيجان، مثل أخ، أن. والثاني في تلك الأصوات ذات الأصول في الطبيعة، يتحدد معناها باقترانه بحادث طبيعي. مثلها: صوت الماء "خرير" أو فقفقته عند الغليان...

وعلاقة الصوت بالمعنى علاقة فطرية تظهر في الكلمات التي ترجع إلى عبارات الهيجان والتي تحصل في الفم، فيكون المعنى إما روح اللفظة وإما صداها في الوجدان. وهذا ما يعطي اللسان العربي القدرة على البيان. اللسان العربي

اشتقاقي في البنيان، كلماته تعود إلى صور صوتية مرئية مقتبسة مباشرة عن الطبيعة.

وجد الحصري في اللغة أحد العوامل التي تحفظ للأمة وجودها، أما الأرسوزي ومن خلال تعاطيه مع اللغة فقد أكد أن الأمة العربية موجودة وجوداً فعلياً منذ القدم. وهي، أي الأمة حقيقة تظهر قوية أحياناً، وتأخذها في أحيان أخرى عوامل الضعف عن مسرح الفعل، لكنها تظل ماثلة في الذهن.

وبالنسبة لعامل التاريخ يسند الحصري رأيه بوحدة التاريخ عند العرب إلى ما قبل المرحلة العثمانية (قبل القرن السادس عشر)، حيث كانت البلدان العربية ترتبط، كما رأى، بصلات واقعية أقوى وأمتن. ووضح معنى وحدة التاريخ بالنسبة للعرب أنها لم تكن دوماً موجودة (الوحدة التامة غير موجودة في جميع أدوار التاريخ... إنما الوحدة النسبية والغالبة التي تتجلى في أهم صفحات التاريخ التي أوجدت الثقافة الأساسية للأمة فأعطتها لغتها الحالية وطبعتها بطابعها الخاص).(28)

عوّل الحصري على عامل التاريخ باعتباره عاملاً هاماً وأساسياً في تكوين الأمة وباعثاً على الاعتزاز القومي... شاركه في رأيه هذا قادة فكر آخرون، يقول قسطنطين زريق:

"ما تتميز به أمة من الأمم هو شخصيتها التي هي نتاج لغتها وحضارتها وتطورها التاريخي".

وكان لشكيب أرسلان، الذي التقى والحصري من قبل على أهمية استمرار الخلافة الإسلامية، أطروحته بالنسبة لدور العامل التاريخي والثقافة التاريخية، فدل بحصافته وثاقب ذهنه على ما للتاريخ والحفاظ عليه وصونه من التزييف من دور في الحفاظ على الأمة وفي صيانة شخصيتها. من ذلك قوله في كتابه تاريخ غزوات العرب في فرنسا وسويسرا وإيطاليا وجزائر البحر المتوسط:

"فإنه مما يجب أن يخلد في الصدور قبل السطور، وأن يكتب في الحدق قبل الورق أن حفظ التاريخ هو الشرط الأول لحفظ الأمة ونموها، ورقي الأمم وسموها، فإنه لا يتصور على وجه الكرة الأرضية وجود أمة تشعر بذاتها، وتعرّف نفسها قائمة بنفسها إلا إذا كانت حافظة لتاريخها واعية لماضيها، متذكرة لأولوياتها

ومبادئها، مقيدة لوقائعها، مسلسلة لأنسابها، حاشدة لأحسابها، خازنة لآدابها، مما لا يقوم به إلا علم التاريخ الذي هو الواصل بين الماضي والمستقبل والرابط بين الآنف والمستأنف".(29)

لكن مرحلة الهزائم العربية حرفت الاهتمامات إلى اتجاهات أخرى، فاتجه البعض من منطلقات مختلفة يغوص في التاريخ ويؤول أحداثاً بعينها تأويلات شتى ... منهم من أخذته تأويلاته إلى البحث في تاريخ موغل في القدم مؤكداً على أن دولة العرب التي نهضت مع الرسالة الإسلامية لم تكن الحلقة الأولى في سلسلة التاريخ العربي، وإنما هي حلقة تنتمي إلى حلقات في السلسلة سبقتها في الظهور وأنها أيضاً ليست الأخيرة. من ذلك قول البعض العرب ليسوا أمة بداوة من قبل، لكنهم بحسب تقلبات الأحوال والظروف كانوا يتقلبون بين البداوة والحضر، فليست البداوة سمة أساسية في حياتهم، فهم أمة حضارة وتاريخ. وأوغلت دراسات أخرى في الكشف عن عورات الأمة متخذة من مراحل محددة سبباً يبخس الأمة أو ينكر أن تكون موجودةً أصلاً. يعيد إلى الأذهان صوراً من حياة تتنازعها الانقسامات القبلية والخصومات المذهبية، وعدوا ذلك جزءاً من طباع القوم فلا تجمعهم جامعة. توزعت الاتهامات يميناً وشمالاً تنكر وجود الأمة أو تنعى الانتماء القومي وتعد العروبة والانتماء إليها مضيعة أو سبباً لا ينتج غير التخلف.

دخل الرهان على عامل التاريخ سوق المزايدات التي لم تكن نتاجاتها في صالح المشروع القومي، لحساب اتجاهات إقليمية اجتزأت التاريخ في عملية انتقائية تخدم أهدافاً ضيقة لا تلتقي مع الحالة القومية التي نهضت خلال عقود عدة من القرن العشرين... فبدلاً من البحث عن وسائل وطرائق جديدة لمواصلة النهضة القومية وتصحيح مسارها، قامت الجهات الفاعلة في مرحلة ما قبل الهزائم النكراء في عمليات هروب إلى الأمام قوامها التّنصل من الفكر السابق بدلاً من البناء عليه... وحين برزت ضحالة الرؤيا الجديدة من خلال أحداث دراماتيكية حصلت في العالم، صار البحث السياسي يفتش عن أسباب الهزائم في قوة الخصم وأسطرتها بحيث بدت الصهيونية ــ أو رسمت ــ على نحو يصبح التّهويل بخطرها الذي لا سبيل إلى مواجهته على أنه المصير المحتوم فلا مهرب منه، فدخل المشروع القومي أو قل الفكر القومي في مرحلة من الانكماش اللافت.

ومما زاد الطين بلّة أنه بدلاً من بناء قدرات الأمة وتنميتها للحدّ من الخطر الذي جثم على الأمة تكرست أنماط سلوكية سياسية أقامت على الجانب العربي صورة المذاهب والطوائف وقَدَرها التفتت والفرقة والخصومات الحادة مقابل القوة المضادة القادرة على تسخير العالم لمؤازرتها في تحقيق مشروعها بقواه شبه الكاملة...

إن تناسي التاريخ واختراع تاريخ لا سند مادياً له ما هو في الواقع إلا لقىً أثرية موزعة هنا أوهناك، أو أنه ربط بين مراحل تاريخية متباعدة على أمكنة متفرّقة على رقعة جغرافية فصلت على قياس فكرة وجودها محض خيال أو أن الخيال يشكل جزءاً صغيراً أو كبيراً منها... إن هذا يجب ألا يعمينا عن حقائق تاريخية تحمل كثيراً من المصداقية. لقد فعلت قوى متعددة المشارب والرّؤى والأهداف على تزييف التاريخ وتزوير الحقائق أو قصرته على روايات مستمدة من قصور الحكام تصوّر نزواتهم على أنها الصورة المعتمدة لديهم عن التاريخ العربي، إن هذا الفعل العدواني الذي يستهدف شخصية الأمة إنما يهدف في بعض مراحله إلى أن تنسى الأمة تاريخها فتفقد شعورها ووعيها وتدخل في حالة لا سوية فتنقض عليها قوى الهيمنة والتشرذم فلا تسمح لها بالحركة القادرة على تجاوز التخلف والتبعية اللذين اتسمت بهما شخصيتها على مدى ليس قصيراً.

وهنا لا بدّ من ملاحظة تكشف خطورة ما يجري، حيث صار يحكم على التاريخ والفكرة القومية التي تجسد وحدته على أنه تاريخ خاوي الوفاض، وهذه إحدى الدعاوى التي كثر منظّروها، أو أنه تاريخ يعبّر عن شوفينية وجدوا فيها ما يسوّغ لهم اتخاذها صفة من خلال مواقف منتقاة من سلوك سلطة هنا أو هناك... ولعل أخطر ما يتردد على الألسنة وتكرّسه برامج كثيرة على شاشات متعددة الأغراض والأهداف أن يقال إن جميع المساوئ هي نتيجة ما اخترعوه من مصطلح (القومجية، والقومجي).

ولا يخفي أمثال هؤلاء الكتبة والمرتزقة أهدافهم حين ينكرون على العرب وحدة المشاعر، ويصفون الروابط التاريخية بالواهية والضعيفة أو بأنها محض خيال وما شابه ذلك...

ومع الأسف الشديد أن المنابر التي تتنطّع للتوعية بالعروبة وما يمت لها من أفكار صارت منابر ضعيفة لأنها على الأعم تابعة لسلطات مخاتلة لا تفسح في المجال

للواعين بالتاريخ العربي والأهداف القومية والانتماء العربي انتماءً إنسانياً لممارسة دورهم النهضوي، وإنما توكل الأمر لطوائف من المرتزقة الذين لا يملكون من أسلحة فكرية سوى تمجيد الواقع أو تزويقه، أو أنهم يلجؤون إلى أساليب ترقيعية لا تعتمد مناهج في البحث قادرة على الوصول إلى جوهر الأحداث، وترجمة معانيها، ودحض الافتراءات التي تحاول أن تكون هي السائدة....

وإلى جانب ذلك فإن وسائل التربية والإعلام وطرائقهما في مخاطبة الوعي تعتمد أوهى الحجج وأكثرها بهلوانية وأقلها مصداقية.

كان ساطع الحصري يدرك مخاطر الدعاوى التي كان يعتمدها معارضو العروبة فلا يترك حديثاً هنا أو مقالة هناك إلا ويتناولهما بالنقد والنقاش مفنّداً الحجج التي يقوم عليها داحضاً إياها بالبرهان الواضح. وهو لا يتوانى في الإشارة إلى الصحيح فيما ينشره أولئك، كما لا يتنازل عما فيه من ثغرات ومغالطات وجفاء للواقع والحقيقة. كرّس في هذا الاتجاه جهده وكتابته وقد جمع هذه النقاشات التي صحح ما فيها من خطأ وأكد ما فيه من صواب في كتابه (العروبة بين دعاتها ومعارضيها). (30)

وفي معارضات ساطع الحصري للدعوات الإقليمية والأممية وتلك التي كانت تدعو إلى قوميات ضيقة وتحمل في طياتها بذور نظرة متعالية. وهو في كل ما كتب يدحض مثل هذه الدعوات، ظل وفياً في مقارباته كلها للعلمانية والمنطق. انتقد كل فكرة شوفينية، رافضاً بناء القومية (الفكرة) على أنها عصية على التغير. فعلمانيته أبعدته عن النظريات الجامدة التي تتمحور حول ثوابت تدافع عنها ولا تقبل بتغييرها وتطورها.

إن حركة التاريخ هي حركة مستمرة إلى الأمام وإن التغير هو من طبيعة الأشياء، فإذا كانت العروبة موضوعته المحورية فإنه لم يرها حالة ثابتة وإنما هي كأي مفهوم آخر متجددة، على أن تجددها هذا لا يفقدها هويتها... ما أشبه اليوم بالأمس فإذا كان الحصري لم يستطع أن يقف مكتوف اليدين أمام من كان يصف العروبة بالوهم والخيال وينعتها بالنعوت المهينة ويصف دعاتها بالمرضى النفسانيين... فإن أصحاب الفكر القومي اليوم يلاقون هجوماً أكثر شراسة عندما

ينسب أعداء العروبة ومعهم أصحاب النوايا الحسنة الذي وقعوا في أفخاخهم كل مصائب الأمة وكوارثها إلى (الفكر القومجي) و(شوفينية القوميين) و(عدم قابلية العرب للتطور) و(العرب تسيطر عليهم النزعة القبلية)، وغير ذلك من نعوت... كما أن بعضهم لا يرى في التاريخ العربي إلا صراع قبائل وطوائف وأن الثأر هو الذي سيطر على عقول العرب وتأصل في نفوسهم وتفكيرهم، وأن عقد التاريخ منذ كربلاء لم تستطع كل عوامل التقدم في مجالات المعرفة المختلفة التي طبعت العصر بطابعها أن تخلّص العرب منها...

لم يصدر الحصري في أطروحاته القومية عن تعصب ضد الآخرين، وإنما كان ينظر إلى القومية العربية في موضعها في عالم تقوم دوله على القومية التي تحفظ للدولة عندما تكتمل في إطار القومية وجودها وتدعم قوتها، وهو بنظرته هذه كان بعيداً كل البعد عن الغض من قدر الأمم الأخرى... ولم ينجرف وهو في نظرته الإنسانية للوحدة القومية نحو أممية تقيم الدولة على أسس لا تحترم المشاعر القومية ولا على عصبية دينية نحو مجافاة الواقع والقفز فوق الحدود...

وهو في وقوفه في صفّ دعاة الإصلاح الديني كان لا يرى في وحدة الدين أساساً لحركات تتخذ من الدوافع الدينية سبيلاً لإقامة الدولة الإسلامية التي لا تراعي الاختلافات الثقافية والاتجاهات السياسية... يسوق الحصري ميثاق سعد آباد الذي عقد عام 1937 بين تركيا وإيران والعراق وأفغانستان مثالاً على صحّة القول بأن وحدة الدين لا يمكن أن تكون أداة فعّالة للتعاون الدولي، فهي تقتضي وحدة النهج السياسي؛ أما هذا الميثاق بقي حبراً على ورق ولم يظهر له أي أثر فعّال في الأمور السياسية، وبالمقابل صارت الكتلة الأفريقية الآسيوية، التي تضم دولاً إسلامية وغير إسلامية، قوة دوليّة لا بأس بها. (30)

6 ـ القوميّة لا تختصر الدّين ولا تتنكّر له

لم يكن الحصري ليغفل دور بعض العوامل الأخرى في إطار اللغة والتاريخ في التأثير على الفكرة القومية، فهو إذْ يرى في العوامل الاقتصادية ما هو مؤثر في حياة المجتمعات لكنه لا يعدّها مكوناً أساسياً من مكونات القومية:

"إن الحياة الاقتصادية المشتركة لا تتيسّر إلاّ بعد تكوين الدّولة القومية، فيجب أن تعتبر من نتائج تكوين الأمة واستقلالها لا من عوامل تكوينها".

أما بالنسبة للعامل الديني فإن الحصري يعدّ الدّين شيئاً أصيلاً في طبيعة البشر أفراداً وجماعات، لكن الدّين هو بشكل ما موجّه لبشر من أعراق وقوميّات مختلفة. لذلك فإنّه ليس من عوامل تكوين القومية الأساسية لأن تأثير العامل الدّيني لا يكون مقصوراً على شعب بذاته. لذلك فإنه ينوّه من جديد على أن عمل الوحدة في اللغة في الحياة الاجتماعية والحوادث التّاريخية يختلف عن وحدة الدّين اختلافاً كليّاً.

على الرّغم من ذهاب الحصري إلى دور الإسلام في التاريخ العربي لكنه ميّز بين اعتناق الشعوب المختلفة للإسلام وبين استعرابها، فهو يرى أنه "على الرغم من أن الحركة الإسلامية أوجدت انقلاباً خطيراً في أحوال العرب ... لم تبقَ مرتبطة بالقومية العربية ارتباطاً كاملاً، لأن بعض الجماعات استعربت دون أن تعتنق الإسلام. وبعكس ذلك فإن بعض الجماعات اعتنقت الدّيانة الإسلامية دون أن تستعرب".

وهو في موقفه هذا لم يتنكّر لفضل الإسلام في الحفاظ على هويّة الأمة العربيّة. من هذه الزّاوية يكون الحصري قد قرر أن الإسلام ساعد موضوعياً على استعراب الشّعوب الأخرى. (31)

لقد كان الحصري في أطروحاته هذه ينطلق من حجج وبراهين عقليّة من خلال رؤيته الشّاملة للتّاريخ. وواجهت هذه الطروحات موجات عارمة من الاعتراضات والاستياء والسّخط... فحاول التخفيف منها بلجوئه إلى مقولات العديد من رجال الدين الذين كانوا يرغبون في عدم الخلط بين القومية والدين وبعضهم كان من الوضوح بحيث دعا إلى فصل الدّين عن الدولة، كما فعل (علي عبد الرّازق) في مؤلفه " الإسلام وأصول الحكم".علماً أن الحصري قد كان له قبل انهيار الدولة العثمانية من حياته آراء مختلفة. لكن نتائج الحرب العالمية الأولى وسقوط الخلافة العثمانية أدّيا به في أجواء فكرية وسياسية جديدة سادت في أواخر عشرينيات القرن الماضي إلى أن يتميّز عن دعاة الرّابطة الإسلامية والحركات الدّاعية إلى العودة إلى نظام الخلافة، ليبين أنه ليس ثمة إسلام واحد، لا من حيث وحدة

الشعائر العملية، ولا من حيث فهم المعتقدات الدّينيّة... فراح يعلن أن هدفه توطيد الإيمان القومي دون أن يتنكر لفضل الإسلام على العرب، كما سبق ذكره.

لم يكن الحصري وهو الباحث العالم والعروبي الغيّور على الأمّة وتراثها أن ينكر ما للدّين من أهميّة في حياة الأمم. لكنّه لم ير فيه رابطاً يحفظ للأمة شخصيتها ويساعد على تنامي الوحدة بين أبنائها. في حواراته وأجوبته على أصحاب الآراء والأفكار المغايرة لأفكاره، لم يكن يجيب أو يحلل أو يفنّد ويصدر الأحكام جزافاً، اعتمد دائماً على الحجج المنطقيّة بعيداً عن أي تعصّب لفكرة أو رأي.

ناقش شفيق غربال في مقالة طويلة يردّ على مادّة نشرها هذا الأخير في كانون الثاني من عام 1955.. بدأ غربال أطروحته قائلاً:

"إن الحركة العربية والجامعة الإسلامية تقومان على أساس من العصبية القومية اللادينية بالنسبة للأولى، وعلى الأساس الدّيني بالنّسبة للثانية ...".

فردّ الحصري عليه قائلاً:

"لا تتضمن الفكرة القومية إنكار الدين أو استنكاره بوجه من الوجوه، فربطها باللا دينيّة يشوّه معانيها تشويهاً عظيماً فيحول دون فهمها على وجهها الصّحيح".(32)

ويؤكّد قوله هذا مراراً قائلاً:

"إن نعت القومية باللا دينية والقوميين باللا دينيين، لا يتفق مع حقائق الأمور".(33)

وعندما يردّد غربال دعوته إلى جمع الكلمة على إصلاح ديني مسيحي إسلامي، لصدّ نزعات الإلحاد والمادّية. يجيبه الحصري بمنطق العالم أن جمع الكلمة لا بد له من ركيزة يرتكز إليها، إذ إن هذا لا يتم تحت راية أحد هذين الدينين، فهو يحتاج إلى راية أخرى يجتمعان تحتها تختلف عن راية كل منهما، ليستطيع الدينان أن يجتمعا ويعملا معاً تحت ظلّها، هذه الراية الجامعة_ بالنسبة إلينا_ هل يمكن أن تكون شيئاً غير راية الوطنية والقومية؟ وبتعبير أقصر راية العروبة؟. أفلا يحق لنا أن نقول هنا أيضاً: " **العروبة أوّلاً** ؟ "

7 ـ أولويّة التربية:

الاهتمام بالتربية القومية قاربه الباحثون والسياسيون أحياناً من أكثر من جهة. وقد نظر إليها ـ أي التربية_ معظم الباحثين من حيث صلتها بالوعي القومي على أنها لا تستطيع إنجاز مهمتها إذا لم تعط تدريس اللغة القومية والتاريخ ما يستحقانه من الاهتمام والعناية. فإلى جانب الاهتمام بتعليم اللغة القومية وآدابها، يأتي تدريس التاريخ. وقد نبه إلى ما يعتور تدريس التاريخ من مخاطر تربويين وساسة من هؤلاء، على سبيل المثال، ما كتبه الرئيس الفرنسي الأسبق ميتران محذراً من أن يعتري تدريس التاريخ الإهمال، قال، كما مر ذكره:

(نقائص تعليم التاريخ تقود إلى فقدان الذاكرة الجماعية لدى الأجيال).

ومن الذين وجدوا في تدريس التاريخ ضرورة وحاجة وأكدوا على وجوب أن تكون له مكانة رفيعة في التربية المدرسية "بيير موروا"، قال:

(ينبغي أن يستعيد التاريخ مكانة رفيعة في التربية ومن اللازم أن يكون شأنه ومكانته قبل شأن المواد الأخرى المرتبطة بالعلوم الاجتماعية. فهو الذي يفتح أمام الشبان طريقة البحث والتفكير في نشأة الإنسان وأصوله وفي مستقبله. وهو الذي يتوجب عليه أن يقدم للناشئة الإطار الزمني والخيط الرائد لكي يتيح لهم أن يتطوروا وهم يدركون الماضي ويفهمونه بإعطاء التسلسل الزمني عطاء لا يستغنى عنه. وينبغي أن يبدأ منذ السنوات الأولى من الدراسة.)(34)

ولعلنا لا نجد المساحة ذاتها لدور التربية في تنمية الوعي القومي في تراث دعاة القومية العربية كما فعل الحصري، وفي فترة لاحقة من بعده عبد الله عبد الدائم أيضاً. فإذا كان الأول قد مهد لذلك واشتغل عليه بدأب بما كان متفقاً مع المهام التي انتدب إليها، في مواقع متعددة أتيحت له سواء في العراق أوفي سورية أو في الجامعة العربية من وضع قواعد الإصلاح التربوي وطرق النهوض بالتربية . فقد عمل عبد الدائم بالهمة نفسها سواء في مهنة التدريس في الجامعة وقبلها في التدريس الثانوي في الدرجة الأولى مما أتاح له أن يضع أسساً لنظرية التربية القومية أغناها بثقافته الواسعة، واطلاعه على تجارب عالمية متنوعة، واضطلاعه بمهمات رفيعة المستوى خلال عمله في المنظمات الدولية التي أرسى فيها وقتها الخطط التي بناها على ما

تمتع به من الخبرات الواسعة. ولم يكتف الرجلان بذلك بل تركا إرثاً عالي القيمة في المؤلفات التي كتبها كل منهما.

لم يكن ساطع الحصري أقلّ إيماناً بدور التربية في عملية النهوض القومي منه كرائد من روّاد الفكر القومي. لقد أدرك خطورة الأمية في حياة المجتمع العربي وعدّها أهم أسباب التخلّف ومن أهم معوّقات النّهوض. وكان يجاهر دوماً بأن هدف التربية يجب أن يكون إيجاد مجتمع جديد متطوّر من جميع الوجوه الاجتماعية والسياسية والثقافية.(35)

كانت لساطع الحصري تجربة واسعة في العمل التربوي ابتداءً من عمله في التعليم والإدارة أيام الحكم العثماني. فكانت له المؤلفات والكتب المدرسية إضافة إلى ما كان يتوافر له من خبرة من خلال ممارسة العمل في التدريس والإدارة. حتى أن أحد مشاهير الأدب التركي قال بعد مغادرة الحصري للأراضي التركية وعودته إلى سورية :

"إن خسارة الأدب التركي بعودة ساطع الحصري إلى البلاد العربية أكبر من أن تعوض".

استطاع الحصري بعد عودته إلى دمشق بعد الحرب العالمية الأولى بفترة وجيزة أن يستعيد قدرته على تفهم اللغة العربية والكتابة والخطابة فيها. لا شك أن لسانه لم يتحرر من كل عجمة ورطانة، ولكن ما نشره من كتب باللغة العربية فاق كل ما نشره بالتركية.(36)

كان همّه في سائر المهمات التي اضطلع بها في كل من سورية والعراق ومصر أن يحدث انقلاباً فكرياً وتربوياً مصطبغاً بصبغة عربية خالصة... وخاض معارك إصلاحية تربوية بعزم لا يلين وإرادة صلبة، رغماً عن أسباب التخلف التي اتسمت بها النظم التربوية في تلك البلدان ومن رواسب سياسات المستعمرين وأذنابهم.

كان في كل ما فعله في مجال التربية سواء في المهمات الإدارية التي اضطلع بها أو في عمله في التدريس يبني فكره التربوي ليسهم في إعادة تنشئة وعي الناشئة بخاصة، والجماهير بعامة عبر التأثير التربوي في عقل الأفراد ومشاعرهم تجلى ذلك في عديد المقالات التي نشرها في مجلة (التربية والتعليم) التي كان يصدرها.

آمن الحصري أن الفعل التربوي والإنجاز الفكري لا يؤتيان ثمارهما الناجعة إذا لم يفتح المفكرون والعاملون في الحقل العربي الأذهان على ما أنجزه الآخرون. لم يخف في كل ما كتبه وما مارسه ممارسة عملية تأثره بالنهضة الأوربية، متخذاً مثاله من حيوية المجتمعات الغربية ونشاطها مقابل الجمود و التخلف اللذين تكرّسهما التربية التقليدية في البلدان العربية، وقد وجد ذلك في الانتقال إلى تربية تنمي وتقوي في نفس العربي التضامن والانضباط والتضحية.(37)

وقد جمع في الأسس التي تقوم عليها التربية التي أراد أن تأخذ طريقها إلى التطبيق بين ثلاثة أمور هي :

1 - غرس المعارف العلمية والمشاعر الوطنية والقومية.

2 - اتخاذ موقف نقدي من الآراء المحافظة والرواسب الغيبية.

3 - التوجه الحازم في عداء الاستعمار.

ويلاحظ في كل ما كتب أن قضايا التربية الصغيرة تعنيه كقضاياها الكبيرة، فهذه تستحق اهتمامه وتلك لا تفلت من بين يديه.(38)

أولى اهتماماً بالعلوم الرياضية والطبيعية في وقت مبكر من حياته إدراكاً لأهميتها في صنع نهضة تنقذ من التخلف في عصر من أهم صفاته أنه عصر العلم بامتياز.

كان الحصري شيخ المربين بلا جدال. وركز منذ بداية عهده بالتربية على تدريس العلوم الطبيعية وسلك في ذلك مسلك التعليم القائم على فهم البيئة أولاً. في أثناء عمله في إعدادية مدينة "يانينا" التي أصبحت اليوم جزءاً من دولة اليونان أعد متحفاً للتاريخ الطبيعي في تلك المدرسة من تحنيط الحيوانات وتجفيف النباتات (...) كما ألف كتباً مدرسية في الزراعة وعلم الأحياء وعلم الحيوان وعلم النبات(39) وانتبه منذ بداية حياته في التدريس إلى أهمية علم النفس الذي أدخله في منهج دار المعلمين التركية في اسطنبول بعد أن تولى إدارتها عام 1909. وكان له أن أسس مجلة التدريبات الابتدائية، وبعدها مجلة أنوار العلوم. فاستحق أن يلقبه الأتراك : (أبو علم التربية التركي).

لم يفته وقد أمّ الديار المصرية بعد خروج الملك فيصل من سورية وفي أثناء تفويضه من قبل وزير المعارف المصري في زيارة بعض المدارس الابتدائية والثانوية أن يعيد ما استقر في فكره عن أهمية تعليم العلوم أن كتب منبهاً إلى أهمية تدريس العلوم الطبيعية قائلاً:

"معلومٌ أن العلوم الطبيعية ذات تأثير عظيم في التربية العقلية، ولا بد من الاستفادة من هذا التأثير في الدراسة الابتدائية والثانوية، ولا سيما في الشرق، لأننا نحن الشرقيين ميالون إلى الخياليات والكلاميات، بعوامل عديدة أثرت ولا تزال تؤثر في تربيتنا منذ قرون. وهذا ما يجعلنا أشد افتقاراً من سوانا إلى العلوم التي تعدل هذا الميل فينا".

في غمرة اهتمامه بالإصلاح التربوي وفي المنافحة عن الفكرة القومية، لم يخل ما خطه قلمه في مجال التربية عن الكتابة. ففي أثناء وجوده في سورية أيام الحكم الفيصلي أصدر مجلة أسماها (التربية والتعليم). وخلال عمله في العراق (1921 ـ 1941) كتب كثيراً من التعليمات والتوجيهات التربوية، وطائفة من الأنظمة والقوانين والمنشورات الرسمية ونشر الكتب التالية:

1- القراءة الخلدونية (الألفباء).
2- مرشد القراءة الخلدونية (طريقة تعليم الألفباء).
3- مساعد القراءة الخلدونية.
4- دروس الأشياء في أربعة أجزاء.
5- أصول التدريس.
6- أصول تدريس اللغة العربية.
7- رسائل إلى بول مونرو في نقد التقرير الذي قدّمه للحكومة العراقية حول المعارف.
8- الإحصاء (محاضرات في مدرسة الحقوق).
9- إضافة إلى كتبه في القومية ودراسته في فكر ابن خلدون وغير ذلك كثير.
10- كذلك ما كتبه في مجلة "التربية والتعليم" وقد صدر منها خمسة مجلدات بين سنتي 1928 ـ 1931.

11-وعندما عاد إلى سورية بعيد الاستقلال نشر كتابه (آراء وأحاديث في التربية والتعليم).

12-كما نشر كتابه (تقارير عن حالة المعارف في سورية واقتراحات لإصلاحها في جزأين، الأول في دمشق1944 ، والثاني في دمشق 1945.

يلاحظ في قائمة كتاباته في التربية سعة أفقه واهتماماته بالممارسة العملية وعدم استسلامه للتنظير. إضافة لما يكتنزه من ثقافة في هذا الباب واستفادته من الفكر الأوربي من خلال رحلاته في أثناء المرحلة العثمانية إلى أوربة واطلاعه على التربية الحديثة التي نقل إلى القارئ العربي أراء أهم روادها من روسو إلى منتسوري ففروبل وديكرولي وغيرهم.

آمن أن بوسع التربية التأثير في المشيئة وتوجيهها الاتجاه المطلوب والمرغوب ونظراً للأهمية التي للتاريخ في تنمية الفكر القومي فإنه أولاه أهمية كبرى في التربية.

يستند الشعور القومي على الذكريات التاريخية أكثر من أي شيء آخر ونستطيع أن نؤكد بأن الأفكار والمعلومات المتعلقة بالتاريخ تلعب دوراً هاماً في حياة الأمم وتؤثر تأثيراً كبيراً في سير الأحدات التاريخية.

ولاحظ أن الغايات التربوية التي يمكن أن تعمل عملها في ساحة تعليم التاريخ كبيرة وخطيرة معلّلاً ذلك بقوله :

(إن المعلومات التاريخية تمتاز عن سائر المعلومات البشرية بالتأثيرات العميقة التي تحدثها في الشعور القومي والوطني وبالأدوار الهامة التي تقوم بها في تكوين القومية والوطنية). (40)

عدّ كل تربية لا تحسب حساباً للنتائج البعيدة مقتصرة على النتائج القريبة شديدة الضرر على المستوى الفردي والجماعي. ذلك أنه يعنى بتنمية الإرادة والانتباه والملاحظة والشخصية.

اهتم بتدريس اللغة العربية وأكد ذلك في سَنِّه من شروط نجاح الطالب أن تكون علامته في اللغة لا تقل عن 50٪ من علامتها التامة، كما ذكر آنفاً. ووجه عناية خاصة بالتربية الاجتماعية.

لقد وضع الحصري العقل والوعي في أعلى المراتب من الأهداف التربوية مؤمناً بأن الإصلاح لا يكون قادراً على بلوغ أهدافه إذا لم يكن القائمون عليه قادرين على تطبيقه... لذلك أولى إعداد المعلمين ما يستحقه من اهتمام، كذلك رأينا اهتمامه بطرائق التدريس التي خص بها بعض كتبه بخاصة في تعليم القراءة للمبتدئين.. فأولى التربية الدور الأهم وجعلها أولاً والتعليم ثانياً تتجاوز التلقين إلى تنمية الطاقات الفكرية ملحاً على التوجيه الخلقي.

آمن بدور علم النفس في فهم طبيعة النمو والحياة النفسية عند المتعلمين فلا تحشى الذاكرة حشواً بالمعلومات، ولا تعليم مجد إذا لم يقم على الفهم:

(الاحتراس من ترك التلاميذ خلال الدرس مستمعين أو متفرجين، ينبغي السعي وراء حملهم على الافتكار الذاتي والفعالية التلقائية بكل الصور الممكنة. كما حث على الإقلاع عن التلقين وإشراك المتعلمين في البحث والتفكير وحل المشكلات ...).

وضع الحصري كل آماله في المستقبل (في تنشئة الأجيال الجديدة وفقاً لأساليب تربوية حديثة. ليس للمحافظة على المجتمع القديم مثلما وُجد، بل لخلق مجتمع جديد).

يظل ما قدمه رواد النهضة العربية منذ القرن التاسع عشر ودعواتهم الوحدوية، علامات هامة شكلت منعطفاً هاماً في تاريخ الأمة، وفي تجديد مفهوم العروبة بما يتناسب مع التغيرات المفتاحية للعالم المعاصر. ومهما تخرص المتخرصون وأدعياء التقدم فإنهم سيخسرون المعركة الفكرية التي هي أحد أهم مؤشرات دوامها وتطورها يتمثل في موضوعة أن العرب أمة لها وجودها المستقل عن الأمم الأخرى، وأن الروابط التي تربط بين أبناء هذه الأمة لا تعلو عليها أية رابطة أخرى. وأن عمق الإيمان بالعروبة لم يكن طارئاً أو وليد لحظات قصيرة ومتباعدة. إن الحاجة اليوم وأكثر من أي وقت مضى ملحّة تقتضي العودة إلى ما كتبه رواد القومية رداً على كل ما طرأ على مسار الفكر القومي في مرحلة يسودها تزييف كل

ما هو مضيء في تاريخنا تحت شعارات ظاهرها" ديانة وباطنها خيانة ". على الرغم من كل وسائل التعتيم والتكفير ستظل آثار الحصري وغيره ممن جعلوا من العروبة ميدان بحث لا يكل تعضده الوقائع التاريخية إضافة إلى مقومات أخرى لا تغيب عن ذهن الباحث الجاد المتسلح بالعلم والمؤمن بقدرة العقل البشري على كشف زيف الدعوات المعادية وسقوطها لأنها لم تؤسس على وعي اجتماعي ومسؤولية أخلاقية، إلى جانب تلك الجهود في الاتجاه نفسه والمتمثل بجهود نهضوية مماثلة ظهرت في حركة لم تتوقف ابتداء من القرن التاسع عشر، بذلها رواد القومية العربية والمؤمنون بالعروبة انتماء وهوية تتجدد باستمرار صمم على الدعوة لها على صفحات المقتبس والمفيد والمنتدى الأدبي وغيرها أعلام غير هؤلاء الذين تعرضنا لأفكارهم، من هؤلاء ــ على سبيل المثال وليس الحصر ـ صلاح الدين القاسمي، عبد الغني العريسي، نجيب عازوري، عارف الشهابي، عادل أرسلان والقائمة تطول.

لكن الحصري قد تفرد بنهج لم يغيره وما ذكرنا عنه ما هو إلا غيض من فيض شخصية لم تطلب منصباً ولم تتحزّب، بل رهنت نفسها لقضية سامية. إن الحصري فيلسوف العروبة وداعيتها القومية الذي لم تلن قناته، والمربّي العالم وهذه الصفات لم تجتمع في شخص واحد كما اجتمعت في ساطع الحصري... آمن بالتقدم وبالإنسان وبالقومية العربية؛ عرف باستقلال الرأي وبرؤية تتجاوز الآني. فهو الرّائد الذي لم تلهه قشور المناصب ولا مغريات الوظائف السّامية.

فليس غريباً، أنه في يوم إعلان الجمهورية العربية المتحدة أن يتوجّه رئيس المجلس النيابي السوري آنئذ الأستاذ أكرم الحوراني عام 1958 ببرقية تهنئة إلى ساطع الحصري وقد رأى أن لا يوجد من هو أحق وأجدر منه بالتهنئة في يوم قيام أول دولة عربية وحدوية في تاريخ العرب الحديث والمعاصر.

كما أنه ليس غريباً أن يشعر أفراد أسرة الحصري أن صحته قد اعتلت إلى حالة الخطر حين وقع الانفصال بين إقليمي تلك الوحدة (أيلول 1961).

لم يعش ساطع الحصري ـ كما كتب حافظ الجمالي ـ على حساب القومية العربية بل عاش من أجلها. وكانت حياته وقفاً عليها، وأغلب الظن أنه مات فقيراً أو شبه فقير في اليوم الرابع والعشرين من شهر كانون الأول عام 1968.

وبعد:

هل انتفت الحاجة إلى الفكر القومي حتى يصدّق اليائسون مقولات المتخرّصين والانتهازيين أن العروبة هراء.وأن القومية العربية فكرة انتهت؟

لا بد من نهضة فكرية جديدة تعيد إلى الفكر القومي حيويته وتبني على ما أسهم به ساطع الحصري وأمثاله وعدم الركون إلى حالة العجز والانهزام.

التحديات التي تحاصر العرب اليوم تحديات تستهدف وجودهم كأمة وكدول قطرية مهددة بمزيد من التشرذم والتجزئة. وتتمثل اليوم، مع الأسف بنمو حركات طائفية وأقلوية لا تفسح في المجال للاستقرار في أية بقعة من أرض العرب، ولا تفسح في المجال لأية عملية تنموية قادرة على الحياة وتلبي الحاجات الضرورية للناس في المأكل والمشرب والمأوى والأمن، يندفع العرب اليوم نحو فوضى تغفل عنها الأنظمة المنهكة بالفساد والإفساد، والمهددة بالاضطرابات الداخلية والعدوان الخارجي.

8 ـ المراجع و الاستشهادات

(1) رضوان السيد: الفكر العربي ـ ع 1 ـ ص191

(2) ستيفان كوليتي : الحديث عن مصطلح الثقافة ـ الثقافة العالمية ع 114 ـ ص178

(3) فيصل درّاج: شكل الفكر القومي العربي في القرن التاسع عشر ـ المستقبل العربي ـ ع3 ـ 1987 ـ ص 87.

(4) م.س: ص88

(5) م س: ص89

(6) م.س: ص91 ـ عن منير موسى: الفكر العربي الحديث ـ دار الحقيقة ـ بيروت

(7) سعد الله، أبو القاسم: الجزائر والقومية العربية ـ مجلة الآداب ـ ص 8 ـ تموز 1966

(7) مكرر ـ فريد جحا: ترجمة ساطع الحصري كما كتبها بقلمه أواخر 1960 ـ مجلة المعلم العربي ـ ص 247 ـ عدد مزدوج (شباط، آذار1977).

(8) تيخونوفا: ساطع الحصري رائد المنحى العلماني في الفكر القومي العربي ـ ص19 ـ دار التقدّم ـ موسكو ـ 1987

(9) فريد جحا: م.س ـ ص248.

(10) تيخونوفا: م.س ـ ص22.

(11) فريد جحا: م.س ـ ص249، 250.

(12) تيخونوفا: م.س ـ ص 30.

(13) فاطمة الجيوشي ـ فلسفة التربية ص 210.

(14) أرنست رينان: ما هي الأمة ـ ترجمة حسن شامي ـ مجلة (نزوى) ـ ص 73 ـ العدد 34 ـ نيسان 2003.

(15) فاطمة الجيوشي: م.س ـ ص 280 ـ دمشق.

(16) تيخونوفا: م.س ـ ص ـ 15

(17) ساطع الحصري: عوامل القومية ـ قراءات في الفكر القومي ـ م.س ـ ص28 ـ
(18) م.س: ص 30.
(19) م.س: ص 31.
(20) م .س: ص 32.
(21) تيخونوفا: م.س: ص47.
(22) فيصل دراج: م س ـ ص 91
(23) م س ـ ص96
(24) زكي الأرسوزي: العبقرية العربية في لسانها ـ ص57 ـ الأعمال الكاملة – المجلد الأول
(25) ساطع الحصري: م س ـ ص 60
(26) زكي الأرسوزي : م س ـ ص 61
(27) زكي الأرسوزي: الأمة عقيدة ـ ص 363 ـ الأعمال الكاملة ـ المجلد 2
(28) تيخونوفا: م.س ـ ص 48.
(29) سامي الدهان: شكيب أرسلان ، حياته وآثاره ـ ص264 ـ دار المعارف ـ مصر
(30) ساطع الحصري: العروبة بين دعاتها ومعارضيها ـ بيروت ـ دار العلم للملايين ـ 1957.
(31) تيخونوفا: م.س ـ ص93.
(32) تيخونوفا: م.س ـ ص53.
(33) ساطع الحصري: العروبة أولاً ـ ص 175 ـ دار العلم للملايين ـ بيروت 1955.
(34) م.س: ص 179.
(35) كامل عيّاد: ذكرياتي عن ساطع الحصري ـ المعلم العربي ـ (شباط ، آذار1977).
(36) جميل صليبا: تجربتي مع الحصري ـ م.س.
(37) ساطع الحصري: أبحاث مختارة في القومية العربية ـ ج 2 ـ بيروت1974.
(39) حافظ الجمالي: الحصري شخصية وفكراً ـ المعلم العربي ـ ع ك1 ـ 1974.
(40) فريد جحا: ساطع الحصري العالم ـ المعلم العربي ـ ع ك1 ـ 1977.
(41) ساطع الحصري: أبحاث مختارة في القومية ـ ج2 ـ ص153 ـ بيروت1974.

وفي الختام

في الوقت الذي بات فيه العالم المعاصر يعاني من مشكلات تقدمه، ما زال العرب يعانون من مشكلات تخلفهم وتبعيتهم. تأخرت الأمة العربية عن ركب التقدم وهي تكاد اليوم تفقد بوصلة تؤمن لها اللحاق بركب الحضارة الهائل السرعة، تراجع المشروع القومي العربي وتكاثرت المشاريع التي تحركت لتأخذ دوره في عملية الحراك الاجتماعي على مختلف مكوناته السياسية والاقتصادية والتربوية.

لابد من إعادة فحص المشروع القومي النهضوي ومراجعته في إطار أسئلة أزماته وعوامل تراجعه، والعمل على تحديد أسباب معاناته ومسبباتها في علاقاته مع الآخر، وتحديد الآخر في إطار تنوعه. الوعي القومي العربي الذي تؤسسه تربية متطورة منفتحة تعزز القدرات الإبداعية عند المتعلم قد يكون مفتاح فعل ثقافي يسهم في إخراج الإنسان العربي من شعوره بالعجز عن معالجة أدوائه كافة، وعن ضعف أدائه في المشاركة بعملية التفاعل مع ما أنجزته البشرية من تقدم في مستويات الحياة جميعها.

لا تعني عملية التفاعل مع منجزات الحضارة المعاصرة الانخراط فيها دون الوعي بالذات العربية في تمايزها، كما كل ذات أخرى، وتحديد إمكاناتها بعيداً عن الشعور بالدونية من جهة، والادعاء بتميزها من خلال غطرسة تداري عجزها وتضع تبعاته على الآخر، أو من خلال عمليات هروب إلى الوراء في التفتيش عن أسباب قوة افتقدت صلاحيتها.

ولا تعني عملية التفاعل مع العصر البداية من الصفر في تقدير الذات وتوصيفها. ولا يعني الانخراط في حضارة العصر القبول بشروط الآخر، أي أن نكون ـ كما يقول مطاع صفدي ـ نسخة محكومة مقدماً بعقدة العجز.

سجلت عمليات النهوض القومي العربي عبر العقود الأولى من القرن العشرين على أكثر من صعيد نجاحات فكرية هامة متحررة من أسباب التخلف الفكري والقوقعة عند مفرزات التخلف من أفكار غيبية وممارسات ماضية وَسَمَتْ قرون التراجع العربي، كان منطلقها مقدمات لم تخلف غير الصراعات المذهبية والطائفية. أسس عدد من المتنورين العرب لانطلاقة قومية تأخذ بالتطور في المجالات الإنسانية، واكتشفوا الأسباب التي يستطيع بها المجتمع العربي أن ينجح في بناء نفسه وإحراز مقومات تماسكه والحفاظ على وجوده من خلال فكر قومي آفاقه إنسانية وتوجهاته تعتمد العلم والفكر العلمي والأخذ بأسباب التقدم التكنولوجي.

استنطاق النهضة القومية العربية وقد تمثلت بإرث ثقافي هام أنتجته فئات مثقفة ومتنورة متطلعة إلى قيام حياة عربية تمثل النهضة القومية العربية أهم أركانها مهمة الأجيال المعاصرة. ربما كانت منطلقات تلك النهضة قد تجاوزت واقع العجز والتخلف بما مثله ويمثله من إحباطات رافقت محاولات وضع القطار على سكته، لكن بعض المغامرات التي قادها متهورون من جهات مختلفة بسبب من سلوك انتهازي حيناً، وأفكار فجة أحياناً أساءت لما أنجز وعطلت نموه.

النهضة المغدورة من أبنائها قبل أعدائها لا ندعي أن في العودة إليها البلسم الشافي لأدوائها، لكن البناء على ما أنجز فيها من ناحية التقدم الفكري عما سبقها، وإخراجها من دوائر الاتهام والنقد الجارح الذي يجدر أن يكون موجهاً للفئات التي تسرعت وأجحفت هو ما يمكن أن يؤخذ في الاعتبار قبل غيره.

لاتزال الدعوة إلى استنهاض المشروع الثقافي العربي تحمل قدراً كبيراً من التفاؤل، على أن تتوفر الإرادة لدى النخب السياسية والقومية في تجاوز حالة العجز والدوران في المكان التي تتحكم بالحياة الثقافية العربية. الفكر القومي العربي هو حاجة، هذا اليوم أكثر منه في أي زمن مضى، لإنقاذ المجتمع من أدواء التمحور على الذات والتشتت. لعل النجاح في عملية الاستنهاض هذه يسمح في اختراق الشبكات العنكبوتية المحيطة بنا في كل الاتجاهات، وقد حكمتنا قروناً كثيرة.

قائمة المراجع والمصادر

أولاً ـ الكتب:

- ابن خلدون: المقدمة ـ دار الإحياء العربي ـ بيروت، دون ذكر سنة النشر
- الأرسوزي زكي: العبقرية العربية في لسانه، في الأعمال الكاملة ـ ج1
- = = : الأمة عقيدة ـ الآعمال الكاملة ج2
- بنديكت روث: أنماط الثقافة ـ
- تيخونوفا : ساطع الحصري رائد المنحى العلماني في الفكر العربي ـ دار التقدم ـ موسكو 1987
- الجابري، محمد عابد: المسألة الثقافية –مركز دراسات الوحدة العربية ـ بيروت 1994
- جعيط، هشام: الثقافة والسياسة في العالم العربي ـ دار غاليمار ـ باريس 1991
- الجيوشي، فاطمة: فلسفة التربية ـ المطبوعات الجامعية ـ دمشق ـ 1982
- الحافظ، ياسين: الهزيمة والأيديولوجيا المهزومة ـ دار الطليعة ـ بيروت 1979
- الحصري، ساطع: أبحاث مختارة في القومية العربية ج1 ـ دار العلم للملايين ـ بيروت 1974
- الحصري ، ساطع: العروبة أولاً ـ دار العلم للملايين ـ بيروت 1955
- الحصري، ساطع: العروبة بين دعاتها ومعارضيها ـ دار العلم للملايين ـ بيروت 1957
- الدهان، سامي: شكيب أرسلان، حياته وآثاره –دار المعارف ـ مصر د.س ن
- زريق قسطنطين: نحن والتاريخ –دار العلم للملايين ـ بيروت 1959

- زكريا، فؤاد: الفلسفة والدين في المجتمع العربي ـ مركز دراسات الوحدة العربية ـ بيروت 1985
- شاتليه، فرانسوا: في فلسفة العلوم الاجتماعية ـ وزارة الثقافة ـ 1994
- صن، أمارتيا: التنمية حرية ـ ترجمة شوقي جلال ـ عالم المعرفة ـ الكويت 2004
- عبد الدايم، عبد الله: التربية التكنولوجية في الوطن العربي ـدار العلم للملايين ـ بيروت 1978
- علي، نبيل: الثقافة العربية وعصر المعلومات ـ عالم المعرفة ـ الكويت 2001
- فروم، أريك: اللغة المنسية ـ ترجمة محمود منقذ الهاشمي ـاتحاد الكتاب العرب ـ 1991
- قرم، جورج: التنمية المفقودة ـ دار الطليعة ـ بيروت ـ 1981
- قرني، عزت: العدالة والحرية في فجر النهضة العربية ـ عالم المعرفة ـ الكويت ـ 1980
- كريذروس، مايكل: لماذا ينفرد الإنسان بالثقافة
- كريستي، أغاتا: أخناتون ـ ترجمة حلمي مراد ـ دار الهلال ـ مصر1977
- الملحم إسماعيل: الإنسان والتربية في عصر المعلمات ـ دار علاء الدين ـ دمشق ـ 2003
- الملحم، إسماعيل: الخصوصية في الثقافة القومية ـ اتحاد الكتاب العرب ـ دمشق ـ 1996
- الملحم، إسماعيل: العروبة، دراسة في الشخصية القومية ـ اتحاد الكتاب العرب ـ دمشق 1984
- موسى، منير: الفكر العربي الحديث ـ دار الحقيقة ـ بيروت ـ د س ن
- ميد، مارغريت: الثقافة والالتزام ـ ترجمة خير الدين عبد الصمد ـ وزارة الثقافة ـ دمشق 1976

ثانياً ـ المجلات:

- الآداب : عدد تموز 1966
- الاجتهاد: العدد 54
- التربية الجديدة: العدد 25
- الثقافة العالمية: الأعداد 25 ـ 99 ـ 101 ـ 103 ـ 114
- شؤون عربية: العدد 39
- الطريق: العدد 1 لعام 1957
- الفكر العربي: الأعداد 1 –2 ـ 17 ـ 39 ـ 53
- الفكر العربي المعاصر: الأعداد 1 ـ 11 ـ 13 ـ 117/116
- الكرمل: العدد53
- المستقبل العربي: الأعداد 3 ـ 64 ـ 69 ـ 174
- المعلم العربي: عدد خاص، محاضرات اليونيسكو ـ 1955 ـ شباط/ آذار 1977
- نزوى: العدد 34

الفهرس

تصدير 5
الانغلاق الثقافي والعطالة الإبداعية 8
جدل الثقافة والتاريخ 11
1 – مقدمة 11
2 ـ الثقافة والتاريخ 14
3 – التاريخ ووهم الهوية 17
4 – التاريخ معطى إنساني 18
5 - ضلالات التاريخ 19
6 ـ النتيجة 20
7 ـ الاستشهادات 22
فعل النهضة جدل الثقافة والسياسة 23
1 – مدخل 23
2 ـ النهضة، شروطها وحدودها 25
3 ـ بوادراليقظة 28
4 ـ النهضة العربية وخياراتها 31
5 ـ عناصر الضعف في مشروع النهضة العربية 32
6 ـ الاستشهادات 36
جدل الثقافة والساطة 37
1 ـ مدخل 37
2 ـ ساطة وساطات 38
3 ـ العلاقة بين المثقف والساطة 40
4 ـ الفكر القومي العربي (جدل المثقف والساطة) 40
5 ـ الفجوة بين المثقف والساطة 44

6 ـ أوهام المثقفين وتبذل بعض الكتاب 45
7 ـ النتيجة 47
8 ـ الاستشهادات 48

ثّقافة التغيير والخصوصية القومية.....49

1 ـ ظواهرالتراجع في الحياة العربية 49
2 ـ في مفهوم الثقافة.....55
3 ـ الثقافة والتمايز الثقافي 59
5 ـ الثقافة العربية والتغيير.....70
6 ـ ثقافة التغيير ومتطلبات النهوض العربي.....80
7 ـ ثقافة التغيير وعصرنة الموروث القومي 86
8 ـ ثقافة التغيير والخصوصية القومية 90
9 ـ الهوامش والاستشهادات 97

الفكر القومي العربي بين الثقافة والسياسة 101

ساطع الحصري (1880 ـ 1968) نموذجاً

1 ـ بين الثقافة والسياسة.....101
2 ـ لمحة تاريخية حول الثقافة والسياسة 108
3 ـ ساطع الحصري "الولادة والنشأة".....114
4 ـ المنحى العلماني في فكر الحصري.....118
5 ـ عاملا اللغة والتاريخ 120
6 ـ القوميّة لا تختصر الدّين ولا تتنكّر له.....131
7 ـ أولويّة التّربية 134
8 ـ المراجع و الاستشهادات 142
وفي الختام 144

قائمة المراجع والمصادر.....147

أولاً ـ الكتب.....147
ثانياً ـ المجلات.....149

صدر للمؤلف:

1 - العروبة (دراسة في وحدة الشخصية القومية) ـ اتحاد الكتاب العرب ـ 1987
2 - الخصوصية في الثقافة القومية العربية ـ اتحاد الكتاب العرب ـ 1996
3 - التجربة الإبداعية ـ اتحاد الكتاب العرب ـ 2003
4 - كيف نعتني بالطفل وأدبه ـ دار علاء الدين ـ ط1 ـ 1993 ـ ط2 ـ 2008
5 - تعلم الطفل في الأسرة والمدرسة ـ دار علاء الدين ـ 1995
6 - تنشيط قدرات الطفل على التعلم ـ دار علاء الدين ـ 2003
7 - الإنسان والتربية في عصر المعلومات ـ دار علاء الدين ـ 2008
8 - معركة المزرعة (ملحمة السلاح الأبيض) ـ دار علاء الدين ـ 2000
9 - أعلام خالدون ـ دار ليندا ـ 2011
10 - المشهد الثقافي في السويداء (بالاشتراك) ـ دار الريان 2009
11 - سويداء سورية (موسوعة جبل العرب) بالاشتراك ـ دار علاء الدين2009
12 - سلسلة أدباء مكرمون ـ بالاشتراك في ثلاثة كتب منها ـ اتحاد الكتاب العرب
13 - مشاركة في الموسوعة العربية الجزء السابع
14 - مشاركة في : قراءات في الفكر القومي/ الكتاب الأول ـ مركز دراسات الوحدة العربية ـ 1993 ط1 ـ 1999 ط2
15 - بالاشتراك في كتب التربية العامة وعلم النفس التربوي المقررة لطلاب إعداد المعلمين والمدرسين ـ الكتب المدرسية

قيد النشر:

الزراعة في السويداء قبل دخول الآلات الحديثة-(بالاشتراك) وزارة الثقافة